Sultan Qaboos University
Journal of Arts & Social Sciences

جامعة السلطان قابوس
مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

علوم اللغة العربية وآدابها وفنونها في المغرب والأندلس من خلال مقدّمة ابن خلدون

عامر أحمد قبج

أستاذ مساعد
قسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية
جامعة النجاح الوطنية - نابلس - فلسطين
amer.qobbaj@najah.edu

تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٠٨/٠٢م
تاريخ القبول للنشر: ٢٠١٦/٠٦/٢٣م

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

علوم اللغة العربية وآدابها وفنونها في المغرب والأندلس من خلال مقدّمة ابن خلدون

عامر أحمد قبج

الملخص:
يهدفُ هذا البحث إلى توضيح وإبراز معالم الصورة التاريخية والحضارية للواقع اللغوي في بلاد المغرب والأندلس، بناءً على ما ورد في مقدمة العلّامة أبي زيد، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون(ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، الذي كان شاهداً على كثيرٍ من مظاهر الحضارة العلمية في كلا البلدين، وبخاصة علوم اللسان العربي وآدابه وفنونه، التي انتقل معظمها من المشرق الإسلامي إلى بلاد المغرب والأندلس، ونبغ فيها العديدُ من العلماء. وكان ابن خلدون قد قسَّم العلوم إلى قسمين؛ نقلية وعقلية، فجعل علوم اللغة العربية ضمن العلوم النقلية، وربط ظهورها وازدهارها بأمرين؛ العمران، واتّصال سند العلم في المدن الرئيسية، وبخاصة قُبَيل خراب مدينة القيروان على يد القبائل الهلالية خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وقُبيل سقوط مدينة قرطبة على يد النصارى الإسبان عام٦٣٣هـ/١٢٣٦م، وعلى الرّغم من التشاؤم الذي أبداه ابن خلدون تجاه الأوضاع العلمية والتعليمية في عصره، بسبب العوامل المذكورة، وبخاصة بعد فساد اللغة العربية واختلال دلالاتها بسبب اختلاط لغة أبناء الجيل الفاتح بلغة غير العرب، ولأن كثيراً ممن دخلوا في الإسلام لم يكونوا من ذوي اللسان العربي؛ فإن مقدّمته أتت على كثيرٍ من العلماء المغاربة والأندلسيين الذين أسهموا في الإبقاء على ديمومة اللغة العربية وانتشارها في كلا البلدين، وذلك من خلال تآليفهم التي صنَّفوها في مختلف فروع علوم العربية وآدابها وفنونها، كالنَّحو واللغة والبيان، والشِّعر والموشّحات والأزجال؛ حتى أصبحت جزءاً من مكوِّنات هويتهما الحضارية والثقافية الإسلامية والإنسانية. ورغم كثرة الدراسات التي عنيت بعلوم اللغة العربية في المغرب والأندلس؛ فإنها لم تسلّط الضّوء بشكل مباشر على ما اشتملت عليه المقدمة من معلومات قيِّمة حول ماضي وواقع علوم اللسان العربي فيهما، فجاء هذا البحث ليعكس صورة الرؤية الخلدونية في هذا المجال، وليُبرز معالم ومظاهر العلاقات التاريخية بين بلَدَيّ الجناح الغربي من العالم الإسلامي، ومدى التفاعل والتأثير المتبادَل الذي رافق مسيرة النهضة اللغوية فيهما.

كلمات مفتاحية: ابن خلدون، المغرب، الأندلس، اللغة العربية، الموشحات، الزجل.

Arabic Language Sciences, Literature and Arts in Al- Maghreb and Al-Andalus through Ibn Khaldun’s “Muqaddema”

Amer A. Qobbaj

Abstract:
This study aims to identify and portray the main historical and civilizational features of the linguistic situation in Al-Maghreb and Al-Andalus, based on the Muqaddema of Ibn Khaldun (d. 808 A.H\1406 A.D), who was a witness to many of the scientific aspects of civilization in both countries, especially the Arabic language sciences, literature and arts, a large bulk of which, was transferred from the Islamic East and reached Al-Andalus and Al-Maghreb. Ibn Khaldun had divided sciences into two groups: sciences based on textual evidence and sciences based on cognitive reasoning. He considered the Arabic Language sciences within the textual sciences, linking their emergence and wide spread to two reasons: “Umran” (urbanism, culture and civilization), and continuity in the transmission of knowledge from one generation to another in major cities, especially before the destruction of Kairouan by Hilali tribes during the fifth century A.H./eleventh century AD, and before the fall of Cordoba by Spaniards during the seventh A.H century/thirteenth A.D century. Despite the fact that Ibn Khaldoun was pessimistic about the condition of learning and knowledge in his era, particularly the deteriorating condition of the Arabic language caused by the mixing of Arabs with non-Arabs, he mentioned in Muqaddimah many scholars who maintained and protected the Arabic language and spread it in Al-Maghreb and Al-Andalus through their published books in various areas of Arabic syntax, linguistics, semantics, and poetry. These books constituted and shaped the cultural, educational and Islamic identity. Much research has been done in the area of Arabic linguistics, mainly in Al-Maghreb and Al-Andalus, yet most of it did not analyze the contents of the Muqaddema which relate to Arabic language in these two areas. This study investigates the linguistic references in the Muqaddema about the Arabic language and shed some light on the features of the historical relationships between these two regions of the Western Islamic world, as well as the mutual interaction that accompanied the linguistic development there.

Keywords: Ibn Khaldun Al-Maghreb Al-Andalus Arabic Language   Muwashshah, Zajal.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

توطئة من وحْي "المقدمة"

حظيت علومُ اللغة العربية وآدابها وفنونها بنصيب وافرٍ من مقدِّمة ابن خلدون، لتقاطُع مواضيعها ومباحثها مع نظرياته الاجتماعية، التي شكَّلت الأساس بالنسبة للمنظومة الفكرية التي قامت عليها مقدمتُه، ذلك أن اللغة؛ إنما هي ظاهرة إنسانية واجتماعية، ووسيلة من وسائل التبليغ والتواصل الإنساني والحضاري، وهذا ينسجم مع نظريته في "العمران"، والتي برهن من خلال إحدى جزئياتها؛ أن العلوم تظهر وتزدهر حيث يكون الاجتماع البشري والعمران، وتطرَّق ابن خلدون إلى أصل العلم وحقيقته، والتعليم وأصنافه؛ وأفاد بأن العلم والتعليم طبيعيٌّ في البشر، وعدَّ المَلَكة العلمية أسمى غاياته، ومن أهم وسائل الحصول عليها؛ دراسة ما وصل إليه السابقون في هذا العلم أو ذاك، والإحاطة به، وبعد طول الممارسة والمران؛ يقوم الإنسان بفِكره بالتطوير والإبداع حتى تُصبح الممارسةُ خبرةً وملكة، فيُراكم عليها، وهكذا جيلاً بعد جيل. ومن أجل تحقيق ذلك؛ لا بد من الرِّحلة إلى الأمصار والحواضر الغنيَّة بالعلوم وفنون التعليم، لأن حصول المَلَكات عن طريق المشافَهة أشدُّ استحكاماً وأقوى رُسوخاً في النفس والعقل، وشدَّد ابنُ خلدون على المحاورة اللسانية والمناظرة في المسائل العلمية؛ بعيداً عن الحفظ دون الفهم، والتلقين دون التفاعل المتبادل بين المعلِّم والمتعلِّم، وفي هذا السياق، انتقد طلبةَ مدينة فاس في بلاد المغرب الأقصى وسائرَ طلبة أقطار المغرب؛ لهدرهم الوقت في ملازمة المجالس العلمية سُكوتاً؛ لا ينطقون، وإنما يركِّزون على الحفظ، مما جعلهم قاصرين عن الحصول على ملَكة العلم(ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ١٦٦-١٦٧)، ويأتي ذلك في سياق التوجيهات التربوية الكثيرة؛ التي هدف ابن خلدون من ورائها إلى تطوير العملية التعليمية في عصره، وفي مقدمتها؛ ضرورة التفاعل ما بين المعلم والمتعلم، وإثراء حلقات العلم بالنقاش والحوار، والتركيز على الفهم؛ لأنه أقوى رسوخاً في الذاكرة من التلقين والحفظ، ولما في ذلك كله من فوائد جمَّة في إثراء دائرة الحصيلة المعرفية وزيادة القدرات التحصيلية لدى الطلبة.

ونظراً لأهمية العلم في حياة البشر ومعاشهم؛ فقد عَدَّ ابنُ خلدون تعليمَه من جملة الصنائع، واعتمدت نِسبتها في الجودة والكثرة على نِسبة العمران، خاصة وأنَّ مظاهر ومقتضيات التَّرف والحضارة الزائدة على المعاش؛ لا تكون إلا في الأمصار الغنية بعمرانها، وعندما يحصل أهلها على ضروريات حياتهم؛ يتفرَغون لطلب العلم (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ١٧٠)، وهذه دعوة مبطَّنة إلى ضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية، والارتقاء بمستوى معيشة الناس نحو الأفضل، من أجل زيادة وتيرة الإقبال على العلم والتعليم، لما لذلك من أهمية كبرى في تحقيق التقدم والرقي الحضاري. وعدَّ ابنُ خلدون تعليمَ العلم من جملة الصنائع، وبرر ذلك بالقول: أنه بسبب كثرة العلماء وتعدد مشاربهم؛ فقد تعددت اصطلاحات تعليم العلم وطُرُقه؛ فكان لكل إمام طريقة خاصَّة في التعليم؛ تميَّز بها عن غيره، إذ لو كان التعليم مِن العلم؛ لكان واحداً في اصطلاحاته وطريقة أدائه عند الجميع، مما دلَّ أن تعليم العلم من جُملة الصنائع (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ١٦٦)، وقسَّم ابنُ خلدون العلوم التي تداولها أهلُ الأمصار إلى صنفين؛ عقليةً ونقليةً، وما يهُمنا منها؛ العلوم النقليّة، والتي لا مجال فيها لإعمال العقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول، ومن بينها علوم اللسان العربي؛ لسان المِلَّةِ الذي نزل به القرآن الكريم (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ١٧٠).

وكانت العلوم المذكورة قد ازدهرت في بلاد المغرب والأندلس، وأصبح لكُلٍّ منها رجال يُرجَع إليهم فيها، وبخاصة في مدينة القيروان (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ١٧٢)؛ حاضرة بلاد المغرب وقاعدتها، وأم مدنها، عِلماً وتجارة وصنائع (المراكشي، ١٩٤٩: ٣٥٦)، فكانت كالمرجل الذي لطالما كان يغلي بالدراسات والنقاشات والمناظرات العلمية والفكرية والمذهبية، حتى باتت حلقاتها العلمية نوادي للفكر، ومسارح لدراسات المِلَل والنِّحل (حواله، ٢٠٠٠: ١/٩٠)، ولما خرِبَت بسبب الهجرات الهلالية إلى بلاد المغرب الأدنى خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي؛ اضطُرَ أهلُها وعلماؤها إلى الرَحيل عنها إلى مصر، وصقلية، والأندلس، ومدينة فاس في بلاد المغرب الأقصى (المراكشي، ١٩٤٩: ٣٥٦، عن خراب القيروان؛ انظر: ابن بسام، ١٩٩٧: ٤/٦١٢-٦١٥)، ممَا أدى إلى ضياع عمرانها وانقطاع سند العلم والتعليم فيها، فأثر ذلك سلباً على النهضة العلمية في سائر بلاد المغرب.

وأما مدينة تونس؛ فبَدَت للعبدريِّ على نحوٍ مختلفٍ؛ فقال: "وما من فَنّ من فنون العلم إلّا وجدتُ بتونس به قائماً، ولا موردٍ من موارد المعارف إلّا رأيتُ بها حوله وارداً وحائماً، وبها من أهل الدِّراية والرِّواية عددٌ وافر" (العبدري، ٢٠٠٧: ٧٢)، ويبدو أن مدينة تونس قد ملأت حيِّزاً من الفراغ الذي تركته القيروان. وحول المنهاج التدريسي الذي كان متَّبعاً لدى التونسيين؛ أفاد ابنُ خلدون أنهم قد جعلوا علوم القرآن أساساً للعلم والتعليم، ولكنَّهم جمعوا بينها وبين مختلف أصناف العلوم الأخرى، شأنهم في ذلك شأن الأندلسيين؛ الذين اهتموا أكثر من غيرهم بالتجويد ونظْم الشعر والترسُّل والخطّ، ومختلف العلوم الدينية واللغوية الأخرى، مما أفادهم في التفنُّن في الحصول على ملَكَة اللسان العربي، فأصبحوا متفوِّقين بها على أهل بلاد المغرب، وأما التقارُب بين أسلوبي التعليم الأندلسي والتونسي؛ فيعود إلى مهاجري الأندلس الذين قدموا إلى بلاد المغرب الأدنى واستقروا بتونس، بعد تغلُّب النصارى الإسبان على بلاد الشرق الأندلسي (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٥٣-٣٥٥)، فضلاً عن قيام عددٍ من السلاطين والأمراء التونسيين بحكم بعض الأقاليم الأندلسية في عهد الدولة الموحدية (٥٢٤-٦٦٨هـ/١١٣٠-١٢٦٩م)، وأخيراً، وقوع تونس على طريق الرحلة إلى المشرق، ومكوث الكثير من الأندلسيين فيها؛ طلباً للعلم قبل مواصلة رحلتهم إلى مصر والمشرق، فأثَّروا في أنماط التعليم التونسي وطُرُقه (الطوخي، ١٩٩٤: ٧٢).

وفي بلاد الأندلس، فقد ظلَّت مدينة قرطبة منذ بداية الحكم الإسلاميِّ مركزاً لأهل العلم والأدب؛ وخرَّجت مساجدُها وأروقتُها العلمية أفواجَ العلماء، والتآليفَ الكثيرة في مختلف التخصصات، مما أدى إلى ازدهار الأوضاع العلمية في البلاد عامة(ابن بسام، ١٩٩٧: ١/٣٣، للاطلاع على حضارة قرطبة؛ انظر مقال: (هيلنبراد: قرطبة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القروسطية مركزاً ثقافياً عالمياً، الجيوسي، ١٩٩٨: ١/١٨٣-٢٠٩)، وما أن سقطت وغيرها من المدن بيد الإسبان عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م (عن سقوطها، انظر: عنان، ١٩٩٠: ٣/٤١٧-٤٢٥)؛ حتى قلَّ الإنتاجُ العلمي في الأندلس بتناقُص العمران، وانشغال الناس بمعايشهم، مما أثَّر سلباً على اتصال سند العلم فيهم؛ فلم يبق منه إلا علوم اللغة العربية وآدابها وفنونها (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ١٦٨)؛ ولعل من أهم الأسباب التي استدعت الاهتمام بها؛ الحرص على دوام الشريعة وحفظها، لأن مصادر الأحكام الشرعية هي الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقَلَتُها من الصحابة والتابعين عرب، وارتبطت هذه العلوم بالمَلَكة اللسانية واللغوية (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤، ٣٦٧).

ولم يكتف ابن خلدون بوصف الظواهر اللغوية ومعاينة جزئياتها وحسب؛ بل حرص بعد تشخيصها على اقتراح الحلول المناسبة؛ حرصاً منه على سلامة اللغة بعد أن طالها الكثيرُ من مظاهر الفساد في زمنه، وفي السياق ذاته؛ حدَّد ابنُ خلدون أركان علوم اللسان العربي بأربعة؛ اللغة والنحو والبيان والأدب (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤، ٣٦٧)، ومن أجل الوصول إلى أسمى غايات علوم اللسان؛ الحصول على المَلَكة اللغوية، وتعني؛ قدرة المتكلّم والكاتب على استخراج قواعد اللغة واستيعابها، بطريقة تمكِّنه من التّعبير عن شتّى الأغراض بأسلوب سليم (حداد، ٢٠١١: ٤٧)، أو القدرة العقلية الكامنة وراء الكلام، وهي ملَكَة فطرية هدفها فهم وتكوين جملة نحوية سليمة؛ يتمثل التعبير عنها بالأداء الكلامي والكتابي (Chomsky, ١٩٦٩: ١٣)، ولا تتأتّى هذه المَلَكة إلا بالتعلُّم والممارسة وكثرة الحفظ؛ فعلى قدر جودة المحفوظ وكثرته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه، ومن كانت محفوظاتُه من أشعار العرب القديمة كثيرة؛ تكون ملَكته أجوَد وأعلى مقاماً ورتبةً في البلاغة، وعلى مقدار جودة المحفوظ أو المسموع أيضاً تكون جودة الاستعمال من بعده، ثم جودة الملَكة من بعدهما، فالمَلَكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر، وملَكة الكتابة بالمِران وحفظ الأسجاع والترسيل (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٠٦،٣٩٠).

وفي سياق حديثه عن العلوم التي ينبغي أن يبدأ الصبيانُ بتعلُّمها؛ انتقد ابن خلدون طريقة أهل المغرب، وقال بأنهم يركزون على تقديم تعليم علوم القرآن على غيرها، وسجَّل على هذه الطريقة إخفاقها في إيصال المتعلِّم إلى إتقان مهارة الكلام والوصول إلى ملَكة اللغة، وفي الوقت ذاته أبدى استحساناً نسبياً لطريقة القاضي أبي بكر بن العربي الإشبيلي (ت. ٥٤٣هـ/١١٤٨م)[1]، الذي فضَّل تقديم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، ثم الانتقال منها إلى الحساب، ثم يأتي دور القرآن والعلوم الدينية، حتى يفهم المتعلِّم ما يقرأ، ولكن ابن خلدون استدرك الأمر وأشار إلى صعوبة تطبيق ذلك، لأن الصبيَّ إذا ما وصل إلى مرحلة الشباب، فلسوْف يُشغله اللهوُ عن تعلُّم علوم الدين (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٥٥)، ومما يتفق مع نظرية ابن العربي ما أكَّده علماء اللسان في أيامنا هذه؛ أنَّ الطفلَ يشتمل دماغُه على قدرة هائلة على اكتساب اللغات، وهي قدرة تُمكِّنه من كشف القواعد اللغوية كشفاً ذاتياً، وبذلك يكون أكثر قدرة على تعلُّم واكتساب العلوم والمعارف الأخرى (شكور، ٢٠١٣: ٢٢)، إلا أن هذا الرأي وجد من المؤرخين من يخالفه، ومنهم جوليان ريبيرا الذي قال بأنه كان يجب أن يُبتدأ بتعليم القرآن وعلومِه، لأن ذلك من شأنه تمكين الصبي من نُطق العربية بدقَّة، وتزويد ذاكرته بجمل عربية جيدة الفصاحة، وتهيِّئُه لدراسة علوم اللغة والنحو التي ستجيء فيما بعد، فيتخذ من آيات القرآن المثلَ والشّاهد (ريبيرا، ١٩٩٤: ٣٥)، وفي الوقت ذاته، أشادت الدوائر الثقافية الأوروبية بنظام التعليم الإسلامي؛ فوصفته بأنه كان أكثر اتساعاً وعمقاً وشمولاً وتقدُّماً من نظم التعليم الأوروبية الوسيطة، وبخاصة في مجتمعات القرى الزراعية الإقطاعية الفقيرة بالعلم والعلماء؛ في وقت وقف فيه على رأس العملية التعليمية في البلاد الإسلامية نخبة من العلماء والأدباء، مما جعل التجربة الإسلامية في هذا المجال مثالاً يُحتذى (Gellner, ١٩٨٣: ١١-١٨).

ورغم عدم تبني ابن خلدون لهذه النظرية أو تلك؛ فأنه وجد في نظرية ابن العربي حلاً لحالة الجمود التي كانت عليها الطريقة الإسلامية في تعليم الولدان في المغرب والأندلس، ولكن الظاهر مما أورده من آراء؛ تفضيله الجمعَ خلال المراحل التعليمية الأولى؛ ما بين علوم الدين وباقي أشكال وأنماط العلوم الأخرى، وعدم التركيز على جانب منها دون الآخر، ومن ناحية أخرى؛ أشار ابن خلدون إلى اختلاف لغة أهل المشرق عن لغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس عنهما خلال عصره، واختلاف لغة التخاطُب بين أهل المدن والأمصار في بلاد المغرب والأندلس عن المُضرية والحِميرية التي كان عليها جيل الفتح؛ بسبب مخالطة الفاتحين وأبنائهم وأحفادهم للعجم، فتخلّوا عن الحركات الإعرابية التي تتميَّز بها اللغة العربية الفصحى، واستبدلوها بالتقديم والتأخير في الكلام، مما أدى إلى اختلاف لغة التخاطُب، وتعدُّد اللهجات اللسانية العاميَّة المتداولة بين سكان الحواضر والأمصار والأرياف على حد سواء (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٧٩)، فاشتملت عامية أهل الأندلس -على سبيل المثال- على خليط من الألفاظ العربية واللاتينية والبربرية (الخولي، ١٩٨٥: ٣٩؛ ريبيرا، ١٩٩٤: ١١٢)، وبخاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن بلاد الأندلس قد أصبحت خليطاً "فوضوياً" من الأعراق والعادات والتقاليد والثقافات والديانات والمجتمعات اللغوية في ظل الحكم الإسلامي؛ الذي احترم خصوصيتهم الثقافية والأدبية واللغوية (Menocal, Scheindlin, Sells, ٢٠٠٠: ١٢-١٣)، ورغم ذلك بقيت العربية الفصحى؛ لغة الدين والثقافة والدولة والقانون، اللغة الرسمية (الجيوسي، ١٩٩٨: ١/٤٨٠)، وهذا ما ينطبق على واقع العربية في بلاد المغرب في عهد ابن خلدون، ولكنها استطاعت المحافظة على تماسكها؛ ذلك أن اللغة البربرية المحلية كانت أضعف من أن تقاوم تأثير اللغة العربية الجارف، خاصة وأن البربرية كانت تفتقر إلى المفردات الدّلالية والقدرات البلاغية والتصويرية، التي كانت تزهو بها العربية، ذات الجرس الموسيقي المميَّز(حواله، ٢٠٠٠: ١/٩١).

وفي هذا السياق؛ لم يرَ ابنُ خلدون غضاضةً في إدخال بعض المفردات الأعجمية على اللغة العربية، ليس فساداً لها؛ ما دامت اللغة المحكيَّة تُعبِّر عن الغرض المقصود من الكلام، واتضح ذلك من قوله: "أن اللغات كلها ملَكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملَكات في اللسان للعِبارة عن المعاني وجودتها وقُصورها بحسب تمام المَلَكة،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب، فإذا حصلت الملَكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة؛ بلغ المتكلم حينئذٍ الغاية من إفادة مقصوده للسّامع"، والمقصودُ بفساد ملَكة اللغة؛ "أن الناشىء من الجيل صار يسمعُ في العِبارة عن المقاصِد كيْفيَاتٍ أخرى غير الكيْفيَات التي كانت للعرب" (ابن خلدون، ٢٠٠٤: ٣٧٨)، وهذا ما قاله فيما بعد علماء الغرب الأوروبي أن الوظيفة الرئيسية للغة: الإفادة، أي إفادة الكلام، بهدف تحقيق عملية التبليغ والتواصل بين الأفراد والجماعات، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال إدراك مقصود الكلام (Jakobson, ١٩٩١: ٢٢٠)، وبهذا يتبيَّن بأن فساد اللغة حسب ابن خلدون؛ لم يتمثَّل بفساد الإعراب؛ وإنما باختلاف دلالات العبارات والكلمات ما بين لغة أهل العربية المضرية وبين الحديثة التي عايشها في زمنه، وبمعنى آخر، ففسادها لا يتمثّل في البنية الإفرادية وإنما في بُنية التركيب من اللغة، وهنا يمكن اعتبار موقف ابن خلدون من اللغة تأصيلاً للبحث في اللسانيات الاجتماعية، وهذا ينسجم مع رأي المحدَثين؛ أن الازدواجية اللغوية سُنَّة من سُنن اللغة، فرضتها العوامل والمؤثرات الاجتماعية والمناطقية، التي يجب أخذها بعين الاعتبار وعدم تجاهلها، وأما حل مشكلة فساد اللغة على النحو الذي بيَّناه؛ فتمثَّل حسب ابن خلدون بضرورة إعادة تأهيل اللسان بوصفِه بُنية تركيب لا بُنية مفردات (شكور، ٢٠١٣: ٢٠-٢١).

وبرأي ابن خلدون، فقد تميَّز أهلُ صناعة العربية بالأندلس عن نُظرائهم المغاربة بمهارتهم في تحصيل هذه الملَكة اللسانية المُضرية وتعليمها؛ بسبب حرصهم الدائم على التفقُّه في كلام العرب، وكثرة استخدامهم للمصطلحات والمفردات اللغوية نظماً ونثراً، وأما أهل بلاد المغرب فأجْروا صناعة العربية مجرى العلوم ولم يقِفوا على فقه اللغة؛ فأصبحت صناعةُ العربية لديهم كأنها من جملة قوانين المنطق العقليّة أو الجدل، فبَعُدت عن مناحي اللسان وملَكَتِه، ومن الأسباب الأخرى التي ساقها ابن خلدون؛ تلك التي اعتمد فيها على نظريته القائلة بأن العُجْمة إذا سبقت إلى اللسان؛ قصرت بصاحبها في تحصيل العلوم عن أهل اللسان العربي، ومن كان أبعد عن هذا اللسان في الأصل؛ كان حصول الملكة له أصعب وأعسر، وهذا ينطبق على أهل الأمصار في بلاد المغرب، الذين كانوا قاصِرين في تحصيلها عن طريق التعليم (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٦٤، ٣٨٦، ٣٩٠؛ انظر أيضاً: Gilbert, ١٩٩٥: ٣٣٤).

علم النحو واللغة

قدَّم ابنُ خلدون علمَ النَّحو على سائر علوم اللسان العربي، بما فيها علمي اللغة والأدب، لأنه يُمثّل برأيه النَّواة التي تدور في فلكها سائرُ علوم اللسان، رغم معرفتنا بأن اللغة هي مادَّة جميع العلوم اللسانية، وبرَّر هذا التقديم بقوله؛ أن النحو هو الأساس بالنِّسبة لتكوين الجملة العربية وبنائها، وأهميتة في الحفاظ على هيكل وقواعد اللغة، وعدَّ السَّمْع أساس الملَكات اللسانية، التي حافظت على جودة اللغة ونقائها بين العرب، ولما طرقها الخللُ بعد انتشار الفتح الإسلامي واختلاط اللسان العربي بالعجمي؛ خشي أهل العلوم اللسانية فسادها، مما من شأنه أن يؤثر سلباً على القرآن والحديث، فاستنبطوا القوانين والقواعد القياسية لضبْط حركات الكلمات، كالمبتدأ والخبر والفاعل والمفعول؛ حتى تتبيَّن أصول المقاصِد بالدلالة، ولولاه لانتفى أصل الإفادة، فنشأ عن ذلك الإعرابُ وعلمُ النحو (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٦٧-٣٦٨)، وفي هذا؛ إشارة واضحة إلى هيمنة ظاهرة الإعراب على التفكير النَّحوي العربي، وينسجم ذلك مع ما قيل؛ بأن النحو هو "قوانين ضبط اللسان وصورة كُلية لمادة اللغة" (ظاظا، ١٩٧١: ١٠)، ونظراً لأهمية سلامة اللسان؛ فقد ذهب البعض إلى القول بأن فسادَه يؤدي إلى تفكك الوحدة اللغوية وفساد المجتمع برمَّتِه؛ لأنه يشكل وسيلة التواصل والاتصال الرئيسية (حداد، ٢٠١١: ٤٩).

وأما اللغة؛ فهي عبارة المتكلِّم عن مقصودِه، وما هذه العبارة إلا فعلٌ لسانيّ المقصود به الإفادة عن الكلام، وحتى يحسُن استخدامها بما يخدم الغرض؛ لا بد أن تصير اللغة ملَكَةً متقررةً في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، ومما شجَّع على التّأليف في علم اللغة؛ اختلال الدلالات واستعمال كثيرٍ من الألفاظ في غير موضعها، فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة والتدوين على يد أئمة اللسان العربي، حفاظاً على القرآن والحديث (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٦٧، ٣٧٠)، وأشار ابن خلدون أنَّ أول من وضع علم النحو وكتب فيه؛ أبو الأسود الدؤلي (ت. ٦٩هـ/٦٨٨م)[٢]، والخليل بن أحمد (ت. ١٧٠هـ/٧٨٦م)[٣]، وسيبويه (ت. ١٨٠هـ/٧٩٦م)[٤].

ومن العلماء الأندلسيين الذين نبغوا في النحو واللغة؛ أبو بكر محمد بن الحسن بن مذحج الزُّبيدي الإشبيلي (ت. ٣٨٠هـ/٩٩٠م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٧١)، الذي عُدَّ من أهم علماء الأندلس في النحو واللغة والإعراب والسِّير والأخبار خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي (ابن الفرضي، ٢٠٠٨: ١٢١/٢؛ الحميدي، ٢٠٠٨: ٧٢)، وكان شاعراً مُجيداً (ابن بشكوال، ٢٠٠٨: ٥٥/١؛ انظر نماذج من أشعاره: الحميدي، ٢٠٠٨: ٧٢-٧٥؛ الحموي، ١٩٩٣: ٢٥١٩-٢٥٢١؛ الضبي، ١٩٨٩: ٩٤/١)، ومن شيوخه في اللغة والأدب؛ القاسم بن أصبغ (ت. ٣٤٠هـ/٩٥١م)[٥]، وسعيد بن فحلون (ت. ٣٤٦هـ/٩٥٧م)[٦]، وأبو علي إسماعيل بن القاسم القالي (ت. ٣٥٦هـ/٩٦٥م)، وأحمد بن سعيد بن حزم (ت. ٤٠٢هـ/١٠١١م) (ابن خلكان، (د.ت): ٣٧٣/٤-٣٧٤)، والد أبي محمد بن حزم، الذي كان من أهل العلم والأدب والبلاغة والشعر (ابن بشكوال، ٢٠٠٨: ٥١/١).

ونشِط الزُّبيدي في التأليف، فكتب "مختصر كتاب العين للخليل بن أحمد"، وكتاب "طبقات النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس"، و"الواضح" و"الأبنية" في النحو، و"لحن العامة" (الحميدي، ٢٠٠٨: ٧٢؛ القفطي، ١٩٨٦: ١٠٨/٣-١٠٩)، وبدوره أشاد الحموي بمؤلفات الزبيدي، وأفاد بأن "أهل المغرب يتنافسون في كتبه، وبخاصة اختصار كتاب العين، لأنه أتمّه باختصاره وزاد عليه ما كان ينقصه" (الحموي، ١٩٩٣: ٢٥١٩)، وهذا ما ذكره ابن خلدون عندما وصف المختصر المذكور بأنه جيِّد التلخيص، وسهل الفهم والحفظ (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٧١)، ومما شجع الزبيدي على التأليف في علم اللغة؛ قربه من الخليفة الأموي الحكم المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م)، الذي اختاره دون غيره لتأديب ولده هشام المؤيد بالله(٣٦٦-

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٤٠٣هـ/٩٧٦-١٠١٢م)[٧]، وتولّيه العديدَ من المناصب الرسمية، كقضاء مدينة إشبيلية وخطة الشرطة (ابن الفرضي، ٢٠٠٨: ٢/ ١٢١)، مما يدل على اهتمام خلفاء وأمراء تلك الحقبة بالعلم والعلماء، وتشجيعِهم على التأليف والكتابة.

وذكر ابنُ خلدون أنَّ ممن تصدّوا للتأليف في علم اللغة من الأندلسيين خلال عصر ملوك الطوائف؛ علي بن إسماعيل المرسي؛ الملقب بابن سيده الضرير (ت٤٦٠هـ/١٠٦٨م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٧١)، الذي اتخذ من مدينة دانية[٨] مقراً له، ونظراً لسيرته العلمية الفذّة؛ فقد اكتسب ثناءَ العلماء الذين وصفوه بشيخ اللغويين والنُّحاة، وبأعلم أهل الأندلس في النحو واللغة والشعر (صاعد، ١٩٨٥: ١٨٤؛ القفطي، ١٩٨٦: ٢/ ٢٢٥؛ انظر نماذج من شعره لدى: الحميدي، ٢٠٠٨: ٤٥٢-٤٥٣؛ ابن سعيد، (د.ت): ٢/ ٢٥٩)، أما أبرز شيوخه؛ فأبو عمر أحمد بن محمد الطلمنكي (ت. ٤٢٨هـ/١٠٣٦م) أحد أهم الفقهاء والمحدثين وعلماء القراءات في الأندلس (ابن خلكان، (د.ت): ٣/ ٣٣٠)، وألف ابنُ سيدة العديدَ من المصنَّفات؛ أهمها كتاب "المحكم" في اللغة، في عشرين مجلداً، فجاء على ترتيب كتاب العين، وزاد عليه اشتقاقات الكلمات وتصاريفها (ابن خلدون، ٢٠٠٤: ٣٧١)، وله أيضاً: "المخصص"، و"الأنيق" (صاعد، ١٩٨٥: ١٨٥؛ ابن بشكوال، ٢٠٠٨: ٢/ ٥٩)، ونظراً لأهمية "المحكم" فقد لخصه الفقيه أبو المطرف البلنسي(٦٥٨هـ/١٢٦٠م)[٩]، صديق المستنصر بالله الحفصي (٦٤٧-٦٧٥هـ/١٢٤٩-١٢٧٧م)[١٠] بتونس، ولكنه قلب ترتيبَه إلى ترتيب كتاب الصِّحاح على أواخر الكَلِم، وحظي ابنُ سيدة برعاية الأمير العالم مجاهد العامري (ت. ٤٣٦هـ/١٠٤٤م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٧١-٣٧٢)[١١]، ولما مات الأخير حدثت قطيعة بينه وبين خليفته؛ الموفق العامري (ت. ٤٧٤هـ/١٠٨١م)[١٢]، فرحل من مستقره إلى بعض الأعمال المجاورة، ثم استعطفه بقصيدة؛ فرضي عنه واستقر بمدينة دانية حتى وفاته (ابن خاقان، ١٩٨٣: ٢٩١-٢٩٣). وأما أبو إسحق إبراهيم بن محمد، الشهير بالأعلم البطليوسي (ت. ٦٣٧هـ/١٢٣٩م)؛ فاشتهر هو الآخر بنبوغه في علوم النحو (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٥)، والتَّوشيح والقراءات، فصنَّف "الجمْع بين صحاح الجوهري وغريب المصنَّف" في اللغة، وله شروح على كتب "الإيضاح" و"الجمل" في النحو لأبي بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني (ت.٤٧١هـ/١٠٧٨م) (الذهبي، ٢٠٠٠: ٤٦/ ٣٢٠؛ البغدادي، ١٩٥٥: ١/ ١١)[١٣].

ومن علماء العربية والنحو في بلاد المغرب والأندلس؛ أبو علي عمر بن محمد بن عمر الشَّلَوبين (ت. ٦٤٥هـ/١٢٤٧م)(ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٠٨)، والشَّلَوبين بلغة أهل الأندلس؛ البياض المائل للشُّقرة (ابن خلكان، (د.ت): ٣/ ٤٥٢؛ السيوطي، ١٩٧٩: ٢/ ٢٢٤)، وانفرد القفطي المعاصر له بالقول أن هذه التسمية جاءت نسبة لقرية شلوبينية الساحلية؛ من أعمال كورة رية الأندلسية، التي ينحدر منها (القفطي، ١٩٨٦: ٢/ ٣٣٢)، مع العلم أن عدداً من المؤرخين قد أفادوا أنه من مواليد إشبيلية عام ٥٦٢هـ/١١٦٧م (ابن خلكان، (د.ت): ٣/ ٤٥٢؛ السيوطي، ١٩٧٩: ٢/ ٢٢٥)، ومن أهم مؤلفاته: الشرح الكبير لكتاب سيبويه، وشرحه على الجزوليَّة (القفطي، ١٩٨٦: ٢/ ٣٣٤)[١٤]، وكتاب "التوطئة" في النحو (للاطلاع على مؤلفاته انظر: السيوطي، ١٩٧٩: ٢/ ٢٢٥؛ البغدادي، ١٩٥٥: ١/ ٧٨٦)، وعلى الرغم من ذلك؛ قيل بأن الشلوبين لم يكن عاشقاً لهذه الصناعة؛ وإنما كان يريديها ارتزاقاً(القفطي، ١٩٨٦: ٢/ ٣٣٤)، ولم يبرر القفطي سبب ادعائه هذا.

وأظهر ابن خلدون إجلالاً كبيراً للشلوبين؛ وقال بأن عدداً كبيراً من علماء وطلبة المغرب والأندلس قد تتلمذوا على يديه وأخذوا علوم النحو والعربية عنه خلال إقامته في مدينة سبتة، ومنهم قاضي الجماعة في مدينة غرناطة؛ أبو القاسم محمد بن أحمد السبتي، المعروف بالشريف الغرناطي (ت. ٧٦٠هـ/١٣٥٩م)(ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٠٨)، الذي وصفه ابن خلدون بشيخ الدنيا جلالة وعلماً ووقاراً ورياسة، وإمام اللسان حوْكاً ونقداً في نظمه ونثره(ابن خلدون، التعريف، ١٩٧٩: ٦٣).

وكان الشريف الغرناطي قد ولد في مدينة سبتة عام٦٩٧هـ/١٢٩٨م، وتعلم القرآن والعربية، ثم رحل إلى غرناطة، وتولّى فيها القضاء والخطابة، ثم تولّاها في مدينتي مالقة ووادي آش[١٥]، خلال عهد كلٍّ من أبي الحجاج يوسف (٧٣٤-٧٥٥هـ/١٣٣٤-١٣٥٤م)[١٦] وابنه الغني بالله محمد (٧٥٥-٧٩٣هـ/١٣٥٤-١٣٩١م)[١٧]، ثم تفرغ للتدريس والعلم، وبالإضافة إلى نبوغه في النحو؛ فقد كان الشريف أديباً وشاعراً، وبارعاً في المنظوم والمنثور، ومن كتبه "رفع الحُجُب المستورة عن محاسن المقصورة"، الذي شرح فيه مقصورة أبي الحسن القرطاجني (ت.٦٨٤هـ/١٢٨٥م)[١٨]، وكتاب "التسهيل"، ويشار بأن الشريف كان بالإضافة إلى ما ذُكِر؛ عالماً بقوى الأدوية ومنافعها، فألف كتاب "الأدوية المفردة"(ابن أبي أصيبعة، ١٨٨٢م: ٢/ ٥٣؛ وللاطلاع على سيرته ومؤلفاته وأشعاره، انظر: (النباهي، ١٩٨٣: ١٧١-١٧٧)؛ (ابن الأحمر، ١٩٧٦: ١٤٥-١٤٩)؛ (البغدادي، ١٩٥٥: ١٦١)، مما يدل على موسوعيَّة مخزونه العلمي، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من أعلام اللغة وغيرها في بلاد المغرب والأندلس.

ومن ناحية أخرى؛ اتَّفق ابن خلدون في الرأي مع كلٍّ من الشلوبين وأبي القاسم السبتي؛ أن لغة من أدركوا الإسلام وترعرعوا في كنفه أعلى طبقةً في البلاغة وأذواقها في منثورهم ومنظومهم من أولئك الذين لم يدركوه، والسبب في ذلك أنَّ الذين أدركوه قد سمعوا الطبقة العليا من الكلام في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وبخاصة القرآن؛ الذي عجز البشر عن الإتيان بمثله في البلاغة والبيان وفصاحة اللسان (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٠٨)، وفي إطار تشخيصه للواقع اللغوي في بلاد المغرب؛ أشار ابن خلدون أن صناعة النحو واللغة قد شارفت على الانتهاء من بلاد المغرب بسبب تناقص العلوم والصنائع بتناقص العمران؛ لولا وصول كتاب "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" للعالم المصري جمال الدين بن هشام (ت. ٧٦١هـ/١٣٦٠م)[١٩]، الذي اشتمل على تفسير المفردات والجمل ووجوه إعرابها (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٧٠)، ورغم عدم جواز إنكار الدور الذي لعبه كتاب ابن هشام في نشر الوعي اللغوي في بلاد المغرب خلال عصر ابن خلدون؛ فإن الأخير قد بالغ في قوله هذا؛ ذلك أن مبدأ إسقاط الجزء على الكل لا يتفق والمنطق العقلي والتاريخي على حد سواء؛ فمن غير المعقول أن يسهم كتابٌ واحدٌ في أنقاذ الواقع اللغوي من خطر الانهيار التام، ويبدو أن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ابن خلدون قد حاول إبراز دور مصر وعلمائها في مسيرة العلم والحضارة المغاربية.

وأخيراً، وفي معرض حديثه عن العلوم التي تُعدُّ آلةً لغيرها، كاللغة العربية، أكد ابن خلدون أنه لا ينبغي أن يُنظر فيها إلا من حيثُ هي آلة لذلك الغيْر، فلا يوسَّع فيها الكلام، ولا تُفرَّع فيها المسائل، لأن ذلك من شأنه أن يُخرجها عن المقصود والهدف الذي وُجدت له، مما يجعل الاشتغال بها لهواً ومعيقاً عن تحصيل ملكة اللسان، وهذا ما عانت منه صناعة النحو لدى المتأخرين، فأجروها على غير ما قصد منها، وتوسعوا فيها وفرعوا مسائلها، مما أعاق التعليم والتحصيل في هذا العلم، وصار المتعلم يقضي عمره في محاولة تحصيل تلك الفروع دون فائدة (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٥١)، وبذلك يكون ابن خلدون قد أعطى للعلم والتعليم الدورَ الوظيفي الذي يؤديه على مستوى الأفراد والجماعات، انسجاماً مع فلسفته الفكرية (شمس الدين، ١٩٩١: ٦٣).

علم البيان والأدب وفن صناعة الشعر

عدَّ ابن خلدون علمَ البيان من العلوم اللسانية؛ لأنه متعلّق بالألفاظ وما تفيده، ويُقصد بها الدلالة عليه من المعاني، ويدخل فيه موضوع أبنية الكلمات وتغيير الحركات، مما يجعله متداخلاً مع علم النحو، وتدخل فيه أيضاً فنون البلاغة والاستعارة والكناية والتنميق والتسجيع والتجنيس والتطبيق وعلم البديع، وأضاف ابن خلدون أن علم البيان من العلوم اللسانية الحادثة في المِلّة بعد علمي النحو واللغة، ولعل من أهم اغراضه وفوائده؛ المساعدة في فهم الإعجاز القرآني، ولا يتأتّى ذلك إلا لمن تمرّس في مخالطة اللسان العربي وحاز مَلكتَه، وفي السياق ذاته؛ أشار ابن خلدون أن لفظ "الذوق" عادة ما يتداوله المعتَنون بفنون البيان، ومعناه حصول المَلَكة البلاغية لدى الشاعر أو الكاتب، بالممارسة والمران لكلام العرب، وهذا ما لم يتأتَّ للبربر في بلاد المغرب؛ لقصور حظهم في هذه المَلَكة، بسبب مخالطتهم للعجم، مما جعل المشارقةَ يتفوقون عليهم، وفسَّر ابنُ خلدون ذلك بقوله؛ أنَّ علم البيان هو من العلوم والصنائع الكمالية في العلوم اللسانية، التي توجد حيثُ وفور العمران؛ والمشرق أوفر عمراناً من المغرب، فلجأ المغاربة إلى علم البديع واختصوا به وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية، وفرَّعوا له ألقاباً، وعدَّدوا له أبواباً، وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب، فنشطوا في تزيين الألفاظ، خاصة وأنَّ علم البديع سهل المأخذ؛ في وقت صعُبت عليهم مآخذ البلاغة والبيانِ لغموض معانيها بالنسبة لهم، فتجافوا عنها (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٧٤-٣٧٥).

وكان المغاربة والأندلسيون قد تأثروا بفحول علم البيان في بلاد المشرق؛ كالأديب النحوي أبي عبدالله محمد بن علي الخوارزمي (ت. ٤٢٥هـ/١٠٣٤م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٧٥)، الذي صنَّف كتاباً في التصريف، وشرح ديوان المتنبي، وألَّف رسائل في البلاغة والنَّظم والشعر (السيوطي، ١٩٧٩: ١٧٢/١)، وممن نبغوا في علم البيان أيضاً؛ أبو يعقوب، يوسف بن أبي بكر السكاكي الخوارزمي (ت. ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، الذي ألف كتاب "مفتاح العلوم" (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٧٥)، وعُدَّ إماماً في النحو والتصريف والعروض والشعر وعلم الكلام والبيان والمعاني (السيوطي، ١٩٧٩: ٣٦٤/٢).

وأما رابع علوم اللسان عند ابن خلدون؛ فهو علم الأدب، الذي يأتي بالمعنى العامّ مُشتملاً على كل ما يُكتب في العلوم الإنسانية من فلسفة وتاريخ وشعر ونثر، والأخذ من كلِّ علم بطرف، سواء كان ذلك من علوم اللسان أو من العلوم الشرعية وأما الأدب بالمعنى الخاص؛ فيوحي إلى كلِّ من الشعر والنثر وما يتَّصل بهما من أجناسٍ أدبيةٍ أخرى (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٧٦)، وذكر حسبما سمع من شيوخه؛ أن أصول الأدب ومجالاته أربعة؛ "البيان والتبيين" للجاحظ (ت. ٢٥٥هـ/٨٦٩م)[٢٠]، و"أدب الكتاب" لابن قتيبة الدينوري (ت. ٢٧٦هـ/٨٨٩م)[٢١]، و"الكامل في اللغة والأدب" للمبرد (ت. ٢٨٥هـ/٨٩٨م)[٢٢]، و"النوادر" لأبي علي القالي (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٧٧)، وإذا ما تفحَّصنا هذه المؤلفات وما تحويه؛ وجدنا أنها تستوفي فنون اللسان العربي كلها من تفسيرٍ للقرآن ودراساتٍ نقديةٍ وبلاغيةٍ وقصص وسيَر، وشعرٍ ونثرٍ وخُطب، وعليه؛ فمجالات الأدب حسب ابن خلدون؛ الثقافة الجامعة (حداد، ٢٠١١: ١١٧-١١٨).

وما يهمنا في هذا المقام؛ الأديب الشاعر أبا علي القالي، الذي كان قد انتقل من بغداد إلى قرطبة حاضرة الأندلس عام٣٣٠هـ/٩٤٢م، وحظي برعاية الخليفة عبدالرحمن الثالث (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٣-٩٦١م)[٢٣] وابنه الحكم المستنصر اللذيْن عُرف عنهما شغفهما بالعلم والعلماء (ابن الفرضي، ٢٠٠٨: ١٢١/١، للاطلاع على مظاهر اهتمامهما بالعلم والعلماء؛ انظر: عيسى، محمد، ١٩٨٢: ١٠٧-١٤٢)، وعُدَّ إماماً في اللغة والأدب والشعر، فألف كتاب "النوادر" المسمى بأمالي القالي، أو "النوادر والأمالي"، الذي أملاه في جامع الزهراء (الحميدي، ٢٠٠٨: ٢٣٢)[٢٤]، ومن كتبه في اللغة؛ "المقصور والممدود" بناءً على التَّفعيل ومخارج الحروف من الحلْق، و"البارع" في اللغة على حروف المعجم، و"فعلت وأفعلت"، و"حلي الإنسان والخيل وشياتها" و"مقاتل الفرسان" (القفطي، ١٩٨٦: ٢٤١/١-٢٤٤؛ ابن خلكان، (د.ت):٢٢٦/١-٢٢٧)، ولشعره بصمات جليلة في بلاد الأندلس (للاطلاع على مقتطفات من شعره، انظر: الحميدي، ٢٠٠٨: ٢٣٤-٢٣٥)، وتتلمذ على يديه عدد من المشاهير؛ كأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، صاحب مختصر العين (ابن خلكان، (د.ت): ٢٢٦/١)، ويدل استقبال الأندلسيين للقالي ورعايتهم لنشاطه الأدبي على انفتاحهم على الشرق، وخاصة إذا ما علمنا أن الأدب الأندلسي قد ولد من رحم الموروث الثقافي الشرقي (كاليكا، الأدب الأندلسي؛ الجيوسي، ١٩٩٨: ٤٦٤/١).

وأما الشعر؛ فعدَّه ابنُ خلدون من فنون اللغة والأدب؛ ولم يقتصر نظمُه على اللسان العربي، بل هو موجود في كلِّ لغة، سواء كانت عربيةً أو عجمية، ولكن العرب برعوا فيه أكثر من غيرهم، واعتبروه من الفنون الشريفة، فجعلوه ديوان علومهم وأخبارهم، فاستحكمت ملَكَته اللسانية فيهم، وأضاف أن من أهم بواعثه؛ العشق والانتِشاء، وفي معرِض تشخيصه لمدى جودة أشعار أهل المغرب؛ أشار ابنُ خلدون إلى بُعدها عن اللسان المضري لركاكتها، ولهذا لم يكن فيهم سوى القليل من الشعراء المجيدين؛ كالأديب والمؤرخ والشاعر أبي إسحق، إبراهيم بن القاسم ابن الرقيق القيرواني (ت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٤٢٠هـ/١٠٢٩م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٠٢، ٣٩٠، ٣٩٦، ٤٠١)، الذي عُدَّ من ألمع الكُتّاب الذين عرفتهم بلاد المغرب، وبخاصة خلال تولّيه رئاسةَ ديوان الإنشاء في دولة بني زيري الصنهاجية طوال ما يقرب من نصف قرن، وسُمّي خلالها بكاتب الحضرة الصنهاجية (حواله، ٢٠٠٠: ١٩٣/٢-١٩٤)، ومن أنفَس ما ألَّف: "تاريخ أفريقية والمغرب"، و"نظْم السلوك في مُسامرة الملوك"، و"الاختصار البارع في التاريخ الجامع"، و"كتاب النساء"، و"الراح والارتياح"، و"قطب السرور في أوصاف الخمور"، مما أسهم في تنشيط الحركة الأدبية في بلاد المغرب الأدنى وسائر بلاد المغرب (الحموي، ١٩٩٣: ٩٧؛ الكتبي، (د.ت): ٤٢/١)[٢٥].

ومن أعلام الشعر والأدب المغاربة الذين أشاد بهم ابن خلدون؛ أبو عبدالله محمد بن أبي سعيد بن شرف القيرواني (ت. ٤٦٠هـ/١٠٦٧م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٩٠)، الذي اشتهر بقصائد الهجاء التي رمى بها الشاعرَ أبا علي الحسن بن رشيق القيرواني (الكتبي، (د.ت): ٣٥٩/٣)[٢٦]، وله قصيدة في خراب القيروان على يد القبائل الهلالية (المراكشي، ١٩٤٩: ٣٥٦)، كما ألَّف: "النظم والنثر"، و"أعلام الكلام"، و"لُمَح المِلَح" (ابن دحية، (د.ت): ٦٦)، و"أبكار الأفكار" في الحكم والأمثال (حاجي خليفة، (د.ت): ٤/١)، وأبدع في نظم المقامات على نهج الهمذاني (كاليكا؛ الجيوسي، ١٩٩٨: ٤٦٦).

وعَدَّ ابنُ خلدون أبا علي، الحسن بن رشيق القيرواني (ت. ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) من أهم أدباء وشعراء بلاد المغرب، وأضاف بأن هذه الصناعة وتعلُّمها قد استوت على سوقها في كتاب "العُمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقدِه"، الذي ألَّفه عام ٤٢٠هـ/١٠٢٩م، وحوى الأسس والقواعد الواجب على الشاعر مراعاتها في النظم، والعيوب التي قد تلحق بذلك، ونَظَم ابنُ رشيق ذلك شعراً (انظر نص القصيدة: ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٠٣-٣٠٤)، وتميزت أشعارُه وكتاباته بقوّتها وجزالة ألفاظها وغناها بالمحسنات البديعية، فقلّده كثيرٌ من علماء وأدباء المغرب والأندلس، وساروا على منهجه (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٧٥)، ومما يدل على المكانة الأدبية المرموقة لكتاب "العمدة"؛ قيام العديد من الأدباء بتأليف التصانيف والشروح عليه، ومنهم عبدالله بن محمد بن فرحون الأندلسي (ت. ٧٦٩هـ/١٣٦٨م)[٢٧] الذي ألَّف "العُدة في إعراب العُمدة" (البغدادي، ١٩٥٥: ٤٦٧/١)، وكتب عثمان بن علي بن عمر السرقوسي (ت٥٧٠هـ/١١٧٤م) كتاباً سمّاه "مختصر العُمدة" (البغدادي، ١٩٥٥: ٦٥٣/١-٦٥٤)، ورغم ذلك؛ لم يسلم "العُمدة" من النقد؛ فقد صنَّف أبو بكر، محمد بن سعيد بن السرّاج النحوي الأندلسي (ت. ٥٤٩هـ/١١٥٤م) كتاب "مختصر العُمدة والتنبيه على أغلاطه" (البغدادي، ١٩٥٥: ٩١/٢).

وكان ابنُ رشيق قد رحل إلى القيروان عام ٤٠٦هـ/١٠١٥م، حيث المعز بن باديس الصنهاجي (٤٠٦-٤٥٤هـ/١٠١٥-١٠٦٢م)[٢٨]، فأولاه رعايته وقربه من مجلسه، ومن أهم قصائده الشعرية؛ تلك التي مدح بها المعز وأشاد فيها بالقصر الذي بناه في بلدة صبرة قرب مدينة القيروان (القفطي، ١٩٨٦: ٣٣٤/١)، والقصيدة التي خصصها لمدح أبي يحيى تميم بن المعز بن باديس (٤٥٤-٥٠١هـ/١٠٦٢-١١٠٨م)[٢٩]، وله شعر يتغنى فيه بصقلية وجمالها وفضائلها (ابن دحية، (د.ت): ٥٣، ٥٨-٥٩)، يضاف إلى ذلك؛ الرسائل الشعرية الهجائية التي رمى بها ابنَ شرف، ومنها "رسالة ساجور الكلب"، و "قطع الأنفاس" (الكتبي، (د.ت): ٣٥٩/٣، وللاطلاع على نماذج أخرى من أشعاره، انظر: (الحموي، ١٩٩٣: ٣٦١-٣٦٥؛ عبدالوهاب، ١٩٨٦: ١٤٤-١٤٩)، وأما مصنَّفاته الشعرية والأدبية واللغوية بالإضافة إلى "العمدة"، فكثيرةٌ ومنها: كتاب "الأنموذج" في الشعر، و"قراضة الذهب في صناعة الأدب"، و"الشذوذ في اللغة" (القفطي، ١٩٨٦: ٣٣٣/١، ٣٣٩؛ الحموي، ١٩٩٣: ٨٦٢، ٨٦٥)، وبقي ابنُ رشيق في القيروان حتى هجوم العرب الهلالية عليها وتخريبها، فرحل إلى مدينة مازر الواقعة جنوب شرق صقلية، وبقي فيها حتى وفاته عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م (القفطي، ١٩٨٦: ٣٣٨/١).

وعلى صعيد آخر؛ أكّد ابنُ خلدون على أنَّ الاستحواذ على الملَكَة الشعرية إنما يكون بكثرة الحفظ، وأما جودتها فتتبع جودة المحفوظ، وعليه فقد اتَّخذ الشعر في بلاد المغرب ألواناً وأنماطاً توافقت مع طبيعة التخصُّص الذي كان عليه الشاعرُ في الأصل؛ فأشعار الفقهاء مثلاً تختلف في صِيَغها ومفرداتها عن غيرها، خاصة وأن الفقهاء وأهل العلوم تنقصهم البلاغة، بسبب ما سبق إلى محفوظهم من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أساليب البلاغة وفنونها، ومن الأمثلة على ذلك؛ ما سمعه ابنُ خلدون من أبي القاسم بن رضوان (ت. ٧٨٤هـ/١٣٨٢م)[٣٠]، الذي قال: أنشدت أبا العباس أحمد بن شعيب الجزنائي (ت. ٧٥٠هـ/١٣٤٩م)[٣١]، كاتب العلامة للسلطان أبي الحسن علي بن عثمان المريني (٧٣١-٧٥٢هـ/١٣٣١-١٣٥١م) (للاطلاع على سيرته؛ انظر: الحريري، ١٩٨٧: ١٠٨-١٢٥)؛ مطلعَ قصيدةٍ لأبي الفضل التوزري الشهير بابن النحوي (ت. ٥١٣هـ/١١١٩م)[٣٢]، ولم أنسبها له: لم أدرِ حين وقفتُ بالأطلال ما الفرقُ بين جديدها والبالي، فقال لي أبو العباس: هذا شعر فقيه، فقلت له: ومن أين لك ذلك، فقال: من قولِه ما الفرق؟ إذ هي من عبارات الفقهاء، وليست من أساليب كلام العرب، فقلت له: لله أبوك! إنه ابن النحوي، وممن يؤيدون هذه النظرية لسان الدين ابن الخطيب (ت. ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)[٣٣]، الذي التقاه ابن خلدون وأكد له ذلك؛ في وقت كان ابن خلدون نفسه يعاني من القصور في هذا الفن، لأن ملكته الشعرية كانت مسبوقة بمحفوظاته المنظومة في القوانين الفقهية والعلمية (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٠٧)، وظهر ذلك عندما استعمله السلطان أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني (٧٦٠-٧٦٢هـ/١٣٥٩-١٣٦١م) في كتابة سرِّه والترسيل عنه والإنشاء لمخاطباته سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٩م، فلم يسلك ابن خلدون حينذاك مسلك كُتّاب ذلك العهد في طريقة السجع والتنميق والإغراق في المحسنات البديعية؛ بل اتَّبع أسلوب الكلام المُرسل (ابن خلدون، التعريف، ١٩٧٩: ٧٢، انظر نماذج من شعر ابن خلدون بين يدي السلطان أبي سالم؛ المصدر نفسه: ٧٣-٧٩)، وبرأي ابن خلدون؛ فالخطاب إنما سرُّه في إفادة المعنى وكمال الإفادة، وهو البلاغة، أي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وقسّم الكلامَ إلى نوعين؛ المطبوع والمصنوع، فأما المطبوع: الكلام الذي كمُلَت طبيعتُه وسجيتُه من إفادة مدلوله المقصود منه، ثم يتبعُ تراكيبَ الكلام ضُروباً من التحسين والتزيين بعد كمال الإفادة، كتنميق الأسجاع والتورية والجناس، وهذا هو المقصود بالمصنوع، أي المشبع بالصّنعة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اللفظية، التي عادة ما تكون على حساب المعنى والمضمون، مع العلم أنه لا بأس في استعمالها دون مبالغة أو تكلُّف، وكان ابنُ خلدون قد سمع من شيوخه؛ كأبي البركات البلفيقي وأبي القاسم الشريف السبتي يحذِّرون من المبالغة في ذلك (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٠٩-٤١١)؛ ويتفق العالم اللغوي الروسي جاكوبسون مع هذا الرأي، انظر: (Jakobson، ١٩٩١: ٢١٤).

كما انتشر في بلاد المغرب شعرُ الرَّجز المعروف بالشيات، وهو بحر معروف من بحور الشعر العربي، وتسمى قصائده الأراجيز، وواحدتها أرجوزة، وسُمِّي بذلك لأنه تتوالي فيه الحركة والسكون، ثم الحركة والسكون، ومن أعلامه، قاضي سجلماسة الفقيه أبو عبدالله محمد بن عيسى بن المناصف القرطبي (ت. ٦٢٠هـ/١٢٢٣م)، الذي ألَّف "المُذهَّبة في الحُلى والشِّيات" (ابن سعيد، (د.ت): ١/١٠٥-١٠٦).

وأما أهل بلاد الأندلس؛ فافاد ابن خلدون في مقدمته أنهم كانوا أقرب إلى تحصيل ملَكة الشعر من أهل بلاد المغرب، لأسباب سبق ذكرُها، فضلاً عن اهتمامهم بعلوم اللسان، وبالمحفوظات اللغوية نظماً ونثراً، فنبغ فيهم الكثير من الشعراء المجيدين، الذين كان لهم أثرٌ كبيرٌ في النهضة الشعرية والأدبية، فراجت هذه الصناعة في بلادهم (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٩٠)، حتى قيل أنه عندما اضطر القرطبيون خلال القرن الرابع لنقل دواوين الشعر؛ استغرقوا في ذلك خمسة أيام (هيلنبراد؛ الجيوسي، ١٩٩٨: ١/ ١٩٣)، وممَا أسهم في رفد المسيرة الشعرية الأندلسية بمزيد من عوامل التمكين؛ تمتُّع الشاعر بالاحترام المعنوي الرسمي والاجتماعي، فبات يرى نفسه أهلاً للتقدير المادي في البلاط وفي مجتمع الخاصَّة، ولم يكن الشعراء الوطنيون وحدهم محل التقدير والاحترام؛ وإنما شمل ذلك الشعراء الغرباء، وفي أحايين كثيرة كان الشعراء يتزاحمون في القدوم إلى الأندلس؛ تشدُّهم إليها روائح التشجيع والعطايا والصِّلات (ريبيرا، ١٩٩٤: ٦٤).

وادَّعى البعضُ أن الشعراء الأندلسيين كانوا يقلِّدون الشعراء المشارقة، ولذلك كانت فنون الشعر تنضج في الأندلس بعد أن تكون قد بلغت أوجها في بلاد المشرق (الشكعة، ١٩٨٣: ٢٤٩)، مما ينفي عن الشعر الأندلسي صفة الأصالة، وهو أمر غير مقبول؛ ذلك أن الشعراء الأندلسيين كانوا قد قلَّدوا الشعر المشرقي في الشكل والموضوع دون المضمون، خاصة وأن مضمون الشعر الأندلسي قد اعتمد على تجارب الشعراء الذاتية المُستقاة من بيئتهم الاجتماعية والطبيعية؛ فهو مضمون غلب عليه صفة الإبداع والتجديد، لا التقليد، ومما أسهم في تميُّز وصقل الشعر الأندلسي؛ الدور الكبير الذي لعبته الطبيعة الأندلسية الساحرة؛ بأنهارها وأشجارها وجبالها ومروجها الخضراء وظلالها الوارفة التي تسرح فيها العيون ويطرب لها الوجدان، وهو ما رقَّق أحاسيس أهلها ومشاعرهم (البشري، ١٩٨٦: ٣٣٩-٣٤٢).

ولعل من أهم شعراء القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي في الأندلس؛ أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه(ت. ٣٢٨هـ/٩٤٠م) صاحب "العقد الفريد" (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٩٠)، الذي وُصِف بأنه "شاعر الأندلس وأديبها" (ابن الفرضي، ٢٠٠٨: ١/٨٢)[٣٤]، وكان خلال مسيرة حياته قد وقف إلى جانب المؤسسة الحاكمة، فمدح الأميرَ محمد بن عبدالرحمن الأوسط (٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م)[٣٥]، وابنه المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ/٨٨٦-٨٨٨م)[٣٧]، وعبدالله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٣م)[٣٨]، وعبدالرحمن الثالث (ابن خلكان، (د.ت): ١/١١١)، وعُدَّ من أوائل روّاد كُتّاب قصائد الزُّهد التي تُعرف بـ"المكفِّر" (عيسى، فوزي، ٢٠٠٠: ٢٢٤)، وهي قصائد زُهدية نظمها في شيخوخته، فنقَض كلَّ قطعةٍ قالها في الغزل بقِطع شعرية في الإيمانيات والزهد، ليكفِّر بها عن خطاياه الشعرية، وسمّاها بالممحِّصات (الحميدي، ٢٠٠٨: ١٥٣)، ويبدو أن هذا النمط الشعري لم يكن مقتصراً على شعراء العرب والمسلمين وحدهم، بل وُجد أيضاً في أوروبا المسيحية؛ فقد تطرق بعض الشعراء الأوروبيين في أواخر حياتهم إلى نوع من "الشعر الاستغفاري" الذي يشبه "المكفِّر" الأندلسي، مثلما فعل كونت بواتيه الفرنجي؛ غيوم التاسع Guillaume IX (١٠٧١-١١٢٧م) (Jeanroy، ١٩٧٢: ٢٧-٢٨).

وأما أبو عمر، أحمد بن محمد بن درَاج القسطلي (ت. ٤٢٠هـ/١٠٢٩م)، فكان هو الآخر من أشهر شعراء الأندلس، ومن أبرز نُقّاد الشعر (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٩٠)، كما تمتع بمهارة فائقة في البلاغة والرسائل، ومما أسهم في علو نجمه؛ الرعاية التي حظي بها لدى المنصور بن أبي عامر (ت. ٣٩٢هـ/١٠٠٢م)[٣٩]، حتى صار من جملة كُتّابه وشعرائه، وله في المنصور قصائد مدحٍ مشهورة (الحميدي، ٢٠٠٨: ١٦٣، وللاطلاع على مقتطفات من قصيدته في المنصور، انظر: ابن الأبار، الحلة، ١٩٨٥: ١/٢٧٥)، وعندما استعرت نارُ الفتنة في قرطبة في مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، تشرَّد علماؤها وأدباؤها، واشتدت فاقتهم، وفيهم ابن دراج القسطلي، الذي لم يجد قوت عياله، فخرج في طلب الرِّزق، ليقف على أبواب الأمراء الذين اقتسموا الأندلس بعد الفتنة؛ فقصد الخليفةَ الأموي سليمان المستعين بالله (٤٠٣-٤٠٧هـ/١٠١٣-١٠١٧م) وأنشده المديح مهنئاً، فلم ينل منه شيئاً، ثم مدح ذا الرياستين، المنصور منذر بن يحيى التجيبي (ت. ٤١٤هـ/١٠٢٣م) صاحب سرقسطة، عاصمة الثغر الأعلى الأندلسي (ابن بسام، ١٩٩٧: ١/٦٧-٩٤ مواضع مختلفة؛ ابن سعيد، (د.ت): ٢/٦٠-٦١)[٤٠]، وقَصر ابن دراج شعرَه على المديح، ولعل انشغاله بتدبير رزقه وقوت أبنائه؛ قد حال بينه وبين الاهتمام بغيره (أبو زيد، ٢٠١٢: ١٨٤).

وفي عصر ملوك الطوائف راجت صناعة الشعر وازدهرت، بسبب تشجيع الملوك والأمراء ورعايتهم للشعر والشعراء، وكان بنو عباد في إشبيلية، على سبيل المثال لا الحصر، قد أفردوا للشعراء ديواناً يُنزلونهم فيه مراتب متفاوتة؛ حسب براعة كلٍّ منهم وجودة أشعاره، وكان للشعراء في بلاطهم يومٌ في الأسبوع؛ هو الإثنين، يدخلون فيه على ملك إشبيلية فينشدونه أشعارهم، فإذا أراد الشاعر إلقاء قصيدته؛ وقف على كرسيٍّ موضوع لهذا الغرض، فيُلقي مِن عليه أشعارَه (البشري، ١٩٨٦: ٣٤٦)، وعَدَّ ابنُ خلدون حيّانَ بن خلف بن حيان القرطبي (ت. ٤٦٩هـ/١٠٧٧م) من فحول أهل هذه الصناعة في بلاد الأندلس خلال العصر المذكور (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٩٠)، وذلك بعد أن تعلَّم فنون الأدب والشعر والتاريخ فأجادها كلها، ومن شيوخه؛ ابن أبي الحباب النحوي (ت. ٤٠٠هـ/١٠١٠م)[٤١]، وأبو العلاء صاعد (ت٤٦٤هـ/١٠٧٢م)[٤٢]،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وأما أهم تآليفه؛ "المقتبس من أنباء أهل الأندلس"، و"المتين" (الحميدي، ٢٠٠٨: ٢٩٠؛ ابن بشكوال، ٢٠٠٨: ١/١٧٩-١٨٠)، ويتضح مما ذكر بأن مسيرة النهضة الأدبية والشعرية في بلاد الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف؛ لم تتأثر كثيراً بالصراعات التي استعرت نيرانها بين مختلف القوى المحلية ؛ لا بل شكلت المحنُ التي تمخضت عنها مصدر إلهام وتحفيز لدى مختلف أعلام فنون الأدب والشعر في تلك البلاد.

وفي سياق حديث ابن خلدون عن الشاعر أبي إسحق إبراهيم بن خفاجة (ت. ٥٣٣هـ/١١٤٠م) شاعر شرق الأندلس؛ قال: بأن الشعر لا يكون سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذهن، ولهذا كان شيوخ الشعر وفحوله يعيبون على شعر ابن خفاجة كثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٠٢)، والمقصود هنا؛ صعوبة الأسلوب الذي يستعصي على الفهم، وأما المعاني في شعره فواضحة، لا غموض فيها (انظر مقال بيرغل، ج. ك، النشوة والانضباط في الفن الأندلسي؛ (الجيوسي)، ١٩٩٨: ٢/٨٩٩)، ومن الجدير بالذكر أن ابن خفاجة عاش مفتوناً بالحياة، أسيراً لسحر الطبيعة وجمالها، فاستحق لقب "شاعر الطبيعة" و "صنوبري الأندلس"، لأنه كان "أوحد الناس في وصف الأنهار والأزهار والرياض والحياض والرياحين والبساتين" (المقري، ١٩٨٨: ١/٦٨١)، كما لُقّب بالشاعر البستاني، والجنّان (أبو زيد، ٢٠١٢: ٢١٢)، خاصة وأنه شخَّص الطبيعة؛ فوقف عند كل منظر فيها ليصفه كله جزءاً جزءاً، ولم يكتف بذلك؛ بل وثّق الرابطة العاطفية بينه وبين الطبيعة، فربطها بكل موضوع يطرُقه، وجعلها المحور الذي يدور حوله ويرتكز عليه نَظمُه، فربطها بالمدح والذم والغناء والرثاء والزهد (البشري، ١٩٨٦: ٣٧٥-٣٧٦)، وبالإضافة إلى روعة الوصف؛ فقد جاءت أشعارُه مُفعمة بالنشوة والانضباط، فاشتملت على أبعاد كَونية وظلال دينية في آن واحد، شأنها في ذلك شأن الكثير من أنماط الشعر الأندلسي (بيرغل؛ الجيوسي، ١٩٩٨: ٢/٨٩٩)[٤٣].

وتطرق ابن خلدون إلى الآثار السلبية التي لحقت بعلوم اللغة وسائر العلوم نتيجة تغلُّب النصارى الإسبان على كثيرٍ من المدن الأندلسية، وبخاصة خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وفي مقدمتها مدينتي قرطبة وإشبيلية، وما تبع ذلك من تناقصٍ شديدٍ في العمران، وتدهورٍ في أحوال الصنائع، فوصلت الملكةُ اللغوية والشعرية الحضيض، ولم يبق في أهل الأندلس إلا قلة من الشعراء المجيدين؛ من أبرزهم أبو البقاء صالح بن شريف الرُندي (ت. ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٩١)، الذي اشتُهر بقصيدته "رثاء الأندلس"، وأبدى فيها حسرته على ضياع العديد من مدنها وثغورها وحصونها، ووصف حال أهلها، واستنصر من خلالها ملوك العدوة المغربية (المقري، ١٩٨٨: ٤/٤٨٧-٤٩٠؛ انظر أيضاً: أبو زيد، ٢٠١٢: ٢٧٨-٢٨٠).

ومن الشعراء الآخرين الذين أشاد بهم ابن خلدون؛ مالك بن عبدالرحمن بن علي بن المرحّل(ت. ٦٩٩هـ/١٣٠٠م)، الشاعر الأديب، المالقي الأصل، وأحد كُتّاب سلاطين مملكة غرناطة، الذي رحل إلى مدينة سبتة في بلاد المغرب الأقصى، لتلقّي العلم عن مشيختها، وعلى رأسهم الشَّلَوبين (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٩١)، فنظم قصيدة من ألفي بيت شرح فيها "التيسير" على وزن الشاطبية (الذهبي، ٢٠٠٠: ٥٢/٤٣٧)، وله تواشيحُ نبوية سمّاها "الوسيلة الكبرا المرجو نفعها في الدنيا والأخرا"، والقصيدة الطويلة المسماة "التبيين والتبصير في نظم كتاب التيسير"، عارض بها الشاطبية وزناً وقافية، وقصيدته في الفرائض المسماة "الواضحة" (المكناسي، ١٩٧٣: ١/٣٢٨).

ونتيجة لاستمرار مسيرة العدوان والسيطرة الإسبانية على الأراضي الإسلامية في الأندلس؛ انحسر الوجود الإسلامي إلى جنوبي البلاد، ورحل عددٌ كبيرٌ من الأندلسيين إلى بلاد المغرب، فقال ابنُ خلدون: "وألقت الأندلس أفلاذ أكبادها من أهل تلك المَلَكَة بالجلاء إلى العدوة، من إشبيلية إلى سبتة، ومن شرق الأندلس إلى أفريقية، ولم يلبثوا أن انقرضوا وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة، لعُسر قبول العدوة لها وصعوبتها عليهم بعوج ألسنتهم ورسوخهم في العُجمة البربرية"، ثم ما لبثت هذه الملَكة أن عادت إلى الأندلس من جديد، على يد الشاعر ابن بشرين، والفقيه الشاعر أبي عبدالله محمد بن أحمد بن علي بن جابر الهوّاري (ت٧٨٠هـ/١٣٧٨م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٩١)، المعروف بجابر الأعمى، الذي نظم قصيدة مدح من خلالها السلطان الغرناطي أبا الحجاج يوسف (ابن الأحمر، ١٩٧٦: ٢٠٠-٢٠٥)، وله من التصانيف؛ "الحلة السِّيَرى في مدح خير الورى"، وهي قصيدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وقصيدة أخرى مماثلة "نفاس الملح وعرائس المدح" وكتاب "شرح ألفية ابن مالك في النحو" (البغدادي، ١٩٥٥: ص١٧٠)، واشتهر من شعراء الأندلس خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي؛ أبو الحسن علي بن محمد الغرناطي، المعروف بابن الجيّاب (ت. ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٩١)، الذي عُدَّ من أشهر كتاب الدولة النصرية، لأنه عمل كاتباً لستة من سلاطين بني نصر، وعلاوة على ذلك؛ قلده السلطان أبو الحجاج يوسف الوزارة (ابن الأحمر، ١٩٧٦: ١٢٥-١٣٦)، وبالإضافة إلى شاعريَّته؛ فقد كان ابن الجياب إماماً في البلاغة والأدب وعلم الفرائض (ابن فرحون، (د.ت): ٢/١١١، للمزيد حول سيرته وأشعاره؛ انظر: (ابن الأحمر، ١٩٧٦: ١٢٦-١٢٩؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٩٧٤: ١/٣٨٩، ٣٩٥-٣٩٧).

ومن أهم أعلام الأندلس في هذا المجال؛ كبير مشيخة الأندلس العلّامة الفقيه الشاعر أبي البركات محمد بن محمد بن الحاج البَلَفيقي (ت. ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، أحد شيوخ ابن خلدون، الذي مدحه الأخير بقوله: "من أهل البصر باللسان والقريحة في ذوقه" (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٣٣، ٤١١)، وكان البلفيقيُّ قد أدرك الشاعرَ محمداً بن عمر بن خميس في أواخر عمره، وأخذ عنه المقامات (ابن حجر العسقلاني، ١٩٩٣: ٤/١٥٥)، وله ديوان شعر سمّاه "العذب والأجاج" (النباهي، ١٩٨٣: ١٦٦، وللاطلاع على نماذج من أشعاره، انظر: ابن الأحمر، ١٩٧٦: ١٥٨-١٦١)، ومن الطبقة ذاتها؛ الشاعر إبراهيم بن محمد الساحلي، المكنى بأبي إسحاق والمعروف بالطُويجن (ت. ٧٤٧هـ/١٣٤٦م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٣٩١)، الذي ارتحل من غرناطة إلى المشرق، ثم استوطن بلاد السودان ومات فيها(المقري، ١٩٨٨: ٢/١٩٤)، وعُدَّ من أبرز أدباء وشعراء عصره، (للاطلاع على سيرته وأشعاره، انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ١٩٧٤: ١/٣٢٩-٣٤١؛

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المقري، ١٩٨٨: ٢/٦٥٧-٦٥٨).

فن الموشحات والأزجال

يتفق المؤرخون على أن الموشح فنّ أندلسيّ خالص، ويؤكد ابن خلدون ذلك بقوله: "بعد أن كثُر الشعر وتهذّبت مناحيه وفنونه، وبلغ التّنميق فيه غايته في أهل الأندلس؛ استحدث المتأخِّرون منهم فنّاً منه سمّوه بالمُوشّح، نظموه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً، يُكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويُسمون المتعدّد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كلُّ بيت على أغصانٍ عددها بحسب الأغراض، فاستظرف الناس ذلك لسهولة تناوله" (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٥؛ للاطلاع عن الشكل الشعري للموشح؛ انظر أيضاً: Touma ,1997: ٧١)، ويبدو أن الجنوح إلى البساطة، والابتعاد عن التعقيد، والاقتراب من لغة النثر في كتابة الأشعار والموشحات؛ كان مطلباً من مطالب الناس والوشّاحين والنُّقاد على حد سواء (عيسى، فوزي، ٢٠٠٠: ٢٧٦).

وعُدَّت الموشحات "زُبدة الشعر وخُلاصة جوهره وصفوته، وهي من الفنون التي تفوَّق بها أهل الغرب الإسلامي على أهل المشرق، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق" (ابن دحية، (د.ت): ٢٠٤)، واقترنت بالأزجال؛ فكلاهما شكلان من أشكال الشعر العربي المُغنّى، وامتدا إلى بلاد المغرب والمشرق، وأطلق عليهما الباحثون: الجنسين الشقيقين؛ فكلاهما مقطعي الشكل، متقاربان في البُنْيَة، وفي كليهما مفردات محْكيَّة بعيداً عن القواعد اللغوية العربية، فنَظَم العديدُ من أصحاب الموشحات زجَلاً، والعكس صحيح (انظر: مقال مونرو، جيمس: الزجل والموشح، الشعر الأندلسي والتراث الرومانسي؛ (الجيوسي، ١٩٩٨: ١/٥٨١-٥٨٢)، كما أُطلق على هذين الفنَّين اسم: الشعر الدوري، لاختلافه عن الشعر التقليدي في بنائه ونظامه، فهو لا يتخذ من البيت ذي الشطرين وحدة قائمة بذاتها، وإنما يجعل وحدته؛ البيت الدوري الذي يتكوَّن من قسمين متكاملين هما: الدَّور والقفل (عيسى، فوزي، ٢٠٠٠: ١٥٣).

ومما لا شك فيه أن الموشح والزجل فنّان أندلسيان خالصان، ولدا وترعرعا في البيئة الأندلسية لظروف خاصة، ثم انتقلا بعد ذلك إلى المغرب والمشرق، وإن كانا لم يبلغا فيهما ما بلغاه في الأندلس من نضوج وازدهار (عيسى، فوزي، ٢٠٠٠: ١٥١)، ولعل من أهم الأسباب الأخرى لظهور الموشحات والأزجال في الأندلس؛ حالة التُّخمة التي أُصيب بها الشعر العربي هناك، لكثرته وغزارة ألفاظه، فاستعاضوا عنه بالموشحات والأزجال، لبساطة ألفاظها، ومن الأسباب الأخرى؛ تسرُّب الألفاظ الرومانسية العاميَّة إلى الكلام اليومي[٤٤]، فضلاً عن الطبيعة الأندلسية المُترفة، وتشجيع الأمراء والحكام، مما أدى إلى رواج هذه الأنماط الشعرية (عيسى، فوزي، ٢٠٠٠: ١٥٩)، وتجدر الإشارة أن الموشحات قد انتقلت من الأندلس إلى بلاد الشام؛ بواسطة محيي الدين بن عربي (ت. ٦٣٨هـ/١٢٤٠م)، الذي حمل معه هذا الفن ونشره بين الناس، وقد حوى ديوانه الأكبر ستَّ عشرة موشحة أخذت الطابع الصّوفي، مما أدّى إلى ذيوعها على ألسنة فقراء المتصوِّفة؛ ممن عُرفوا بالدراويش (أبو زيد، ٢٠١٢: ١٠٢، انظر نموذج من موشحات التصوف لابن عربي: الشكعة، ١٩٨٣: ٤٤١-٤٤٣)، وبذلك طُوِّعت موشحات التصوف لحمل نظريات المتصوفة ومصطلحاتهم، ونجحوا في التعبير عن مواجدهم وأشواقهم من خلالها (عيسى، فوزي، ٢٠٠٠: ٢٣٥).

وحسب ابن خلدون، فقد ظهرت الموشحات في بلاد الأندلس في أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلاي، على يد مقدَّم بن معافى القُبري، أحد شعراء الأمير عبدالله بن محمد (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٥)، ومما يُؤثَر عنه رثاؤه لسعيد بن السعيدي؛ أحد رجالات الأمير المذكور عام ٢٨٤هـ/٨٩٧م (ابن الأبار، الحلة، ١٩٨٥: ١/١٥٦-١٥٧)، ثم ذاع صيته خلال عهد عبدالرحمن الثالث (الضبي، ١٩٨٩: ٢/٦٣٥)، ولكن معظم أشعاره ضاعت ولم يبقَ منها إلا القليل (للاطلاع على نماذج من أشعاره؛ انظر: المقري، ١٩٨٨: ٣/٥٣٨)، ومن الجدير ذكره أن المؤرخين قد اختلفوا في تحديد البادئ بعمل الموشح؛ ففضلاً عن مقدم بن معافى المذكور، قيل أن أول من صنع أوزانه: محمد بن محمود القُبري الضرير، وقيل أن أبا عمر، أحمد بن عبد ربه، صاحب العقد الفريد، أول من سبق إلى هذا النوع من الشعر المغنّى، مع أن الأمر الجدير بالعناية والاعتبار؛ أن المؤلف الفعلي لفن الموشحات الذي وصل إلينا هو أبو بكر عبادة بن ماء السماء المتوفى عام٤٢٢هـ/١٠٣١م (الشكعة، ١٩٨٣: ٣٧٣، وللاطلاع على نماذج من موشحاته؛ انظر: المرجع نفسه: ٤٠٨-٤٠٩).

على أي حال؛ فقد ازدهرت الموشحات بشكل كبير منذ عصر الطوائف، وقدَّم المؤرخون ومنهم ابن خلدون أبا عبدالله محمد بن عبادةَ القزاز (ت. القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) على سائر وشّاحي العصر الذكور، خاصة وأنه كان من أبرز شعراء وأدباء بلاط المعتصم بن صمادح (٤٤٣-٤٨٤هـ/١٠٥١-١٠٩١م)[٤٥] صاحب المرية[٤٦] (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٥)[٤٧]، وذكر الأعلمُ البطليوسي، الذي نبغ هو الآخر في فن التوشيح (للاطلاع على مقتطفات من أشعاره؛ انظر: ابن الخطيب، جيش، (د.ت): ٨٦-٩٦) أنه سمع أبا بكر، محمد بن أبي العلاء عبدالملك بن زُهر الحفيد (ت. ٥٩٥هـ/١١٩٩م) يقول: "كلُّ الوشّاحين عيالٌ على عبادة القزاز"، وذلك عندما سمع الأعلمُ المقطعَ الآتي من موشحة عبادة: بدر تمّ. شمس ضُحى. غصن نقا. مسك شمّ. ما أتمّ. ما أوضحا. ما أورقا. ما أتمّ. لا جرم. من لحا. قد عشقا. قد حرم (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٥)، وأما ابن زهر آنف الذكر، فكان قد ولد عام ٥٠٧هـ/١١١٣م في إشبيلية، ونشأ فيها، وحفظ القرآن وسمع الحديث والفقه المالكي، وأخذ صناعة الطب عن أبيه، وأفاد المرابطين والموحدين في هذا المجال، وأقبل على الأدب واللغة والشعر، وأجاد نظم الموشحات، وتوفي في مراكش أول دولة الناصر محمد عام ٥٩٥ هـ/١١٩٩م (الحموي، ١٩٩٣: ٢٥٥١)[٤٨]، ويُعدُّ ابن زهر أحد الوشّاحين المبرزين في الغزل، فهو يمثل أجمل ما فيه من حيث التدفُّق العاطفي، والرقّة في التعبير، والصِّدق في تصوير حرارة العشق وانفعالاته (عيسى، فوزي، ٢٠٠٠: ١٧٩).

ومن أشهر وشّاحي عصر ملوك الطوائف (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣١-١٠٩١م)؛ الشاعر أبو بكر محمد بن أرفع رأسه، شاعر المأمون بن ذي النون (٤٢٩-٤٦٧هـ/١٠٣٨-١٠٧٥م)[٤٩] صاحب طليطلة، الذي مدحه بأشعار

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التوشيح (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٥، للاطلاع مقتطفات من أشعاره، انظر: (ابن الخطيب، جيش، (د.ت): ٧٣-٨٥؛ المقري، ١٩٨٨: ١٣٤/٤-١٣٥)، خاصة وأن بيت الشاعر أبي بكر في طليطلة كان يُعدُّ بيت علم وشعر وأدب (البشري، ١٩٨٦: ٣٧٢)، ويُعتبر كل من ابن القزاز وابن أرفع رأسه من أعلى الوشاحين طبقة وطريقة (عباس، ١٩٩٧: ١٨٦).

وأما في دولة دولة المرابطين بالأندلس، فظهر العديد من الشعراء الوشّاحين، كأبي العباس أحمد بن عبدالله بن هريرة، الشهير بالأعمى التطيلي الضرير (ت. ٥٢٠هـ/١١٢٦م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٦)، الذي تميَّز ببراعته في سرعة الحفظ والإيجاز، ورقة الألفاظ وسلاسة المعاني، "حتى صار توشيحُه مثلاً في سائر الناس" (الضبي، ١٩٨٩: ٢٣٤/١-٢٣٥)؛ ابن الخطيب، جيش، (د.ت): ١٦)[٥٠]، وقيل أن جماعةً من الوشّاحين اجتمعوا في مجلسٍ بأشبيلية، ونظَم كُلُ واحدٍ منهم موشحتَه بدقة، وتأنّق في إنشادها، فتقدم الأعمى الطليطلي للإنشاد، ولما افتتح موشحتَه بقوله: ضاحكٌ عن جمان. سافرٌ عن در. ضاق عنه الزمان. وحواه صدري، مزّق الحاضرون موشحاتَهم، لأنهم سمعوا ما يعجزون عن الإتيان بمثله (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٦)، وتدل هذه الرواية أن الموشح كان يلقى أحياناً دون تلحين، وأن تاثيره في النفوس لم يكن مرتبطاً بالتّلحين فحسب (عباس، ١٩٩٧: ١٨٧)، خاصة وأن طريقة الإلقاء، وما تشتمل عليه من تموجات صوتيه، قد تقوم مقام التلحين، فضلاً عن اهتمام السامع بالكلمات والمعاني والدلالات أكثر من اهتمامه بالتلحين.

وإذا كانت الموشحات قد ازدهرت في عصر الطوائف، ومن ثم العصر المرابطي، إلا أنها سجَّلت كثيراً من مظاهر الازدهار خلال عصر الموحدين، حتى اعتُبر هذا العصر من أزهى عصورها، ومما يُميز الموشحات التي نُظمت فيه، تركيز العديد منها على مدح زعماء الموحدين، والتركيز على معانٍ معينة، كوصفهم بالسادة والأماجد، وغيرها من الألقاب والصفات التي كانت تطلق عليهم، وتغنى الوشّاحون ببطولات الموحدين وشجاعتهم وبسالتهم في الحروب التي خاضوها مع أعدائهم (عيسى، فوزي، ٢٠٠٠: ٢٠٩-٢١٠)، ومن أبرز الوشّاحين الذين ظهروا حينذاك، الشاعر الطبيب أبو بكر يحيى بن محمد بن بقي السلاوي (ت. ٥٤٠هـ/١١٤٥م)(ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٦)، الذي اتخذ من مدينة مُرسيَّة[٥١] مستقراً له(الضبي، ١٩٨٩: ٦٧١/٢)، واعتُبر من أمهر معاصريه في نظم الشعر والموشحات، ولكنه اتخذ منها وسيلةً للارتزاق، حتى قيل أنه "وقف في البلاد على كل باب"، ومن ذلك اتّصاله بالأمير يحيى بن علي القاسم لهذا الغرض (الحموي، ١٩٩٣: ٢٨٢٠-٢٨٢١)، ورغم ذلك، فقد أشاد البعض بموشّحاته، فذكر الأعلمُ البطليوسي أنه سمع أبا بكر بن زهر الحفيد يقول: ما حسدْتُ وشاحاً على قولٍ إلا ابن بقي حين قال: أما ترى أحمد. في مجده العالي لا يلحق. أطلعه الغرب. فأرنا مثله يا مشرق (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٦)، كما أشاد لسان الدين بن الخطيب هو الآخر بجودة أشعاره، وبراعته في تصوير المعاني، وغزارتها، وكثرة تشبيهاتها (ابن الخطيب، جيش، (د.ت): ٢)[٥٢].

ومن معاصري هؤلاء من الوشاحين المعروفين، أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد الأنصاري الإشبيلي، المعروف بالأبيض (ت. ٥٢٥هـ/١١٣١م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٦)، الهمذاني الأصل، الذي تأدَّب في إشبيلية وقرطبة، وعلا نجمه في الموشحات وشعر الهجاء، وبخاصة خلال عصر النفوذ المرابطي في الأندلس (أبو بحر، ١٩٨٠: ١٠٨-١١٣)[٥٣]، ومثّل أحد أهم أقطاب أهل الأدب المعارِض والناقد للوجود المرابطي في الأندلس، وتميز بجرأته وقوة نفسه (عباس، ١٩٩٧: ١١٦-١١٧). ومن هؤلاء أيضاً، الحكيم الوزير أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ بن باجة (ت. ٥٣٣هـ/١١٣٨م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٦)، الذي كان لغوياً شاعراً ملحناً، فضلاً عن إلمامه بالطب والفلسفة والفلك والموسيقى، وله من الكتب "شرح كتاب السماع الطبيعي لأرسطو طاليس"، بالإضافة إلى رسائل في علوم الهندسة والهيئة (الأصفهاني، ١٩٨٦: ٣٣٢/١٧؛ ابن أبي أصيبعة، ١٨٨٢: ٦٢/٢-٦٣)، ولكنَّ معاصريه اتّهموه بانحلال العقيدة وسوء المذهب، لاعتقاده بأن الكواكب هي التي تدبِّر العالم[٥٤]، فتعرض للعديد من محاولات القتل، ومن تلاميذه القاضي والفيلسوف العالم ابنُ رشد الحفيد، محمد بن أبي القاسم أحمد بن محمد (ت. ٥٩٥هـ/١١٩٩م)، أحد علماء القرآن واللغة والفقه والفلسفة والطب وعلم الكلام (الذهبي، ٢٠٠٠: ٣٣١/٣٦-٣٣٢)[٥٥]، على الرغم من أنَّ الأخير كان له الكثير من التَّحفُّظات على بعض جوانب فلسفة ابن باجة (هيرنانديس، الجيوسي، ١٩٩٨: ١١٠٤/٢)، ومن موشحاته الشهيرة، تلك التي ألقاها في حضرة مخدومه أبي بكر ابن تيفلويت (أو تافلويت)(ت. ٥١١هـ/١١١٧م)[٥٦]، فلما انتهى منها، صاح الأخير قائلاً: واطرباه، وشق ثيابَه وقال: ما أحسنَ ما بدأت وختمت، وحلف الأيْمان المغلَّظة أن لا يمشي ابن باجة إلى داره إلّا على الذهب، فخاف ابن باجة سوءَ العاقبة، واحتال بأن جعل ذهباً في نعله، فمشى عليه (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٦-٤٢٧)، وبعد وفاة ابن تيفلويت رثاه ابنُ باجة بقصيدة[٥٧].

واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحدين في الأندلس، أبو الفضل جعفر بن محمد بن أبي سعيد بن شرف (ت. ٥٣٤هـ/١١٤٠م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٧)، ابن أديب القيروان، أبي عبدالله محمد بن أبي سعيد، وكان أبو الفضل هذا قد ولد عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢م (الذهبي، ٢٠٠٠: ٣٤٧/٣٦)، ودخل الأندلس صغيراً، ثم ما لبث أن أصبح من أجلِّ علمائها، ومن أكثر المخلصين للمعتصم بن صمادح صاحب المرية (ابن سعيد، (د.ت): ٢٣٠/٢)[٥٨]، وله من الكتب، "كتاب الزمان" الذي عارض من خلاله كتاب كليلة ودمنة، وأخرى في النحو والعروض (ابن دحية، (د.ت): ٦٧)، وكتاب "الحث والتجميش" في الطبيعيات والإلهيات (الذهبي، ٢٠٠٠: ٣٤٧/٣٦)، فضلاً عن اهتماماته الأدبية والشعرية (انظر أشعاره، الأصفهاني، ١٩٨٦: ١٧١/١٧-١٨١). ومن الوشاحين أيضاً، أبو الحكم، أحمد بن علي بن هرودس الأنصاري (ت. ٥٧٢هـ/١١٧٧م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٨)، ويسمى أيضاً بأبي الحكم إبراهيم (ابن الأبّار، تحفة، ١٩٨٦: ٧٢)، "الوزير الأعلى موشي حلل الموشحات وموشح حبر القصائد المستملحات" (ابن دحية، (د.ت): ٢٤٠)، الذي ينحدر من بلدة مرشانة من أعمال المرية جنوب بلاد الأندلس (الحميري، ١٩٨٤:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٥٤٢)، ثم سكن مالقة وعمل كاتباً لأبي سعيد عثمان بن عبدالمؤمن حاكم غرناطة الموحدي (ابن سعيد، (د.ت): ٢/٢١٠)، فقال فيه موشحتَه المشهورة، والتي مطلعها: يا ليلة الوصل والسعود بالله عودي (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٨، وللاطلاع على موشحته في الأمير عثمان، ومقتطفات أخرى من أشعاره، انظر: (ابن سعيد، (د.ت): ٢/٢١٠-٢١٦)، أما وفاته فكانت في مراكش، نتيجة وباء الطاعون (ابن الأبار، تحفة، ١٩٨٦: ٧٢).

وظهر أيضاً الشاعر ابن موهل، وله: ما العيد في حلة وطاق. وشم وطيب. وإنما العيد في التلاقي مع الحبيب (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٨)، مع العلم أن ابن أبي أصيبعة ينسب هذه الموشحة لأبي بكر بن زهر الحفيد (ابن أبي أصيبعة، ١٨٨٢: ٢/٧٨)، ومن أعلام التوشيح بمدينة مرسية؛ أبو الحسن علي بن حزمون (ت. ٥٨٦هـ/١١٩٠م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٠)، الذي يُعدُّ أيضاً صاعقةً من صواعق الهجاء (أبو بحر، ١٩٨٠: ١٠٦؛ ابن سعيد، (د.ت): ٢/٢١٤-٢١٥)، وله موشحة مطلعها: يا هاجري هل إلى الوصال منك سبيل .. أو هل ترى عن هواك سالي قلب العليل (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٠)[59]، فضلاً عن قصائده في الرثاء (أبو زيد، ٢٠١٢: ١٢٠-١٢٢؛ عيسى، فوزي، ٢٠٠٠: ٢١٥-٢١٧)، واشتهر مع هؤلاء بغرناطة؛ أبو القاسم عبدالرحيم بن إبراهيم بن محمد بن الفرس، المعروف بالمهر (ت. نحو ٦٠٠هـ/١٢٠٤م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٩)، فبرع في الفلسفة والشعر والموشحات، وكان قد تمرد على الدولة الموحدية، والتفّت حوله بعض قبائل البربر بنواحي مراكش، ثم غدر به بعضهم فقُتل (ابن الأبار، الحلة، ١٩٨٥: ٢/٢٧٠؛ ابن سعيد، (د.ت): ٢/١١١، وللاطلاع على نماذج من أشعاره وتوشيحاته، انظر: ابن الأبار، الحلة، ١٩٨٥: ٢/٢٧٠-٢٧١).

ومن شعراء الموشحات؛ أبو العباس أحمد بن حنون الإشبيلي (ت. ٦٢٥هـ/١٢٢٨م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٢٩، للاطلاع على نموذج من موشحاته، انظر: (المقري، ١٩٨٨: ٣/٢٠٦)، أحد أبناء عائلات إشبيلية الثرية، الذي اتُّهم بالتمرد هو الآخر على السلطة الموحدية، ففر من وجهها، وعندما تولّى يعقوب المنصور بن يوسف بن عبدالمؤمن (٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٩م)[60] حُكم الدولة الموحدية عفا عنه(ابن سعيد، (د.ت): ٢/٢٤٩)، وظهر في إشبيلية أيضاً أبو الحسن على بن الفضل الإشبيلي (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٠)، الذي تولى خطتي الزكاة والمواريث هناك (ابن سعيد، (د.ت): ٢/٢٨٦، للاطلاع على مقتطفات من أشعاره وموشحاته؛ انظر: ابن سعيد، (د.ت): ج٢/٢٨٧-٢٩١)، وكذلك أبو بكر محمد بن أحمد بن الصابوني الصدفي الإشبيلي (ت. ٦٣٤هـ/١٢٣٧م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٠)، الذي وصف بشاعر عصره الذي "ختمت الأندلس شعراءها به" وفق ما ذكره ابن الأبّار (ابن الأبار، تحفة، ١٩٨٦: ٢٣٠)، وكان ابن الصابوني قد مدح والي المرية أبا بكر عبدالعزيز بن عبدالملك (ت. ٦٣٦هـ/١٢٣٩م) عام٦٣٢هـ/١٢٣٥م[61]، ثم حظي بعناية الخليفة الموحدي أبي العلاء إدريس (٦٢٥-٦٣٠هـ/١٢٢٧-١٢٣٢م)[62]، ثم رأى أن يقصد أبا زكرياء بن عبدالواحد الحفصي (٦٢٥-٦٤٧هـ/١٢٢٨-١٢٤٩م) مؤسس الدولة الحفصية، فلقيه في مليانة ومدحه بقصيدة (ابن سعيد، (د.ت): ١/٢٦٨)، ويشار أن أبا زكرياء نفسه كان شاعراً مُجيداً (للاطلاع على مقتطفات من شعره، انظر: عبدالوهاب، ١٩٨٦: ١٨٨-١٩٠)، ومن الجدير بالذكر؛ أن العهد الحفصي قد شهد نهضةً أدبيةً وشعريةً كبيرةً؛ بسبب تشجيع ملوكها، وامتدادها لثلاثة قرون، واتّساع رقعتها الجغرافية من برقة إلى بجاية والزاب[63]، وكثرة مدارسها، هذا بالإضافة إلى موقع بلاد الحفصيين المتوسط في شمال إفريقيا وقربها من أوروبا، مما جعلها ملتقى الحضارات ومحطةً لتزاوج الثقافات (عبدالوهاب، ١٩٨٦: ١٨٣-١٨٤).

وأفاد ابن خلدون أن من الموشحات التي ارتقى بها صاحبها شكلاً ومضموناً، تلك التي نظمها الشاعر أبو إسحق إبراهيم بن سهل اليهودي الإشبيلي (ت. ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣١)، شاعر إشبيلية وسبتة (الذهبي، ٢٠٠٠: ٤٨/٣٨٣)، الذي كان يهودياً ثم أسلم، فمدح الرسول صلى الله عليه وسلم شعراً (الكتبي، (د.ت): ١/٢٠؛ ابن تغري بردي، ١٩٨٤: ١/٦٨)، ووُصف بأنه أجاد الحفظ، وصاغ من رقيق المعاني، ورسم من بديع الصور في الغزل والطبيعة ما جعل الناس يُسحرون بشعره، ويُطلقون عليه لقب "شاعر الأندلس"، ونظراً لبراعته؛ فقد صار شاعر البلاط المراكشي الموحدي (ابن سعيد، (د.ت): ١/٢٦٩-٢٧٠)[64]، وعرف شعرُه اللعبَ بالمعاني والألفاظ وحسن التعليل، وأفراط في الغزل بالغلمان على طريقة أهل زمانه (الشكعة، ١٩٨٣: ٧٨)، وأما سبب رِقّة نَظمِه؛ فلأنّه اجتمع فيه ذلّان؛ ذُلُّ العشق وذُلُّ اليهودية (المقري، ١٩٨٨: ٣/٥٢٣)، ومن أشهر قصائده؛ القصيدة الغزلية التي نظمها على وزن الرَّمل، وجاء في مطلعها: هل درى ظبي الحمى أن قد حمى. قلبَ صبٍّ حلَّه عن مَكنَس. فهو في نارٍ وخفقٍ مثلما. لعبَت ريحُ الصَّبا بالقَبَس(ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣١)، وأصبحت موشحاته نماذج فنية ينسِج على منوالها كبارُ الشعراء، وفي مقدمتهم الوزير لسان الدين بن الخطيب، الذي أنشأ موشحته المشهورة، وقال في مطلعها: جادك الغيثُ إذا الغيث همى. يا زمان الوصل بالأندلس. لم يكن وصلُك إلّا حلُماً. في الكرى أو خلسة المختلس (للاطلاع على نص القصيدة، انظر: ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٣؛ وللمزيد حول فن التوشيح لدى ابن الخطيب؛ انظر: عناني، ١٩٩٤: ٤٤١-٤٦٨)، وعندما توفي ابن سهل غرقاً؛ قيل: "عاد الدُر إلى وطنه" (المقري، ١٩٨٨: ٣/٥٢٣)، ومن الجدير بالذكر أنه وبسبب التسامح الإسلامي تجاه أهل الذمة، وخاصة اليهود منهم؛ فقد نشط شعراؤهم في نظم القصائد والموشحات وارتجالها بالعبرية (شايندلين، ريموند: اليهود في إسبانيا المسلمة، الجيوسي، ١٩٩٨: ١/٣٠٨)؛ لغتهم الأدبية المفضلة، التي عبّروا من خلالها عن ذواتهم وانفعالاتهم وأحاسيسهم (Decter, ٢٠٠٥: ٧٩).

ومن أعلام الشعر والتوشيح الذين ظهروا في غرناطة خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي؛ أبو الحسن، سهل بن محمد بن سهل بن مالك الأزدي (ت. ٦٣٩هـ/١٢٤٢م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٠)، الذي وُلد بمدينة غرناطة عام ٥٥٩هـ/١١٦٤م، واشتهر بالفقه والخطابة وتجويد القرآن، كما برع في الأدب المنثور والمنظوم، وصنّف في العربية كتاباً مفيداً رتبه على أبواب كتاب سيبويه، وله أيضاً تعليقات على مختصر "المستصفى" المسمى بالضروري؛ للقاضي أبي الوليد بن رشد الحفيد (ابن فرحون،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(د.ت): ٢٩٥/١-٢٩٦؛ السيوطي، ١٩٧٩: ٦٠٥/١؛ وللاطلاع على نماذج من أشعاره؛ انظر: ابن فرحون، (د.ت): ٢٩٦/١-٢٩٧).

وأما فن الزجل في الأندلس والمغرب: فيُفهم مما ورد في مقدمة ابن خلدون، أن التوشيح سابق له، إذ يقول: "عندما شاع فن التوشيح في الأندلس وانتشر؛ لسلاسته وكلامه المنمَّق، نسجَت العامَّةُ من أهل الأمصار شعراً على منواله، من غير أن يلتزموا بالإعراب، وسموه بالزجل" (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٣)، فعُدَّ فنّاً قائماً بذاته، ومستقلاً عن الموشحات والشعر المنظوم، ولربما عادل التوشيحَ في أهميته الفنية والتاريخية؛ رغم القواسم المشتركة التي تجمع بينهما (الموصلي، ١٩٧٠: ٤، ولمزيد من الاطلاع على طبيعة العلاقة بينهما؛ انظر: عباس، ١٩٩٧: ٢١٠-٢١٣)، ولا يعرف على وجه الدقة متى ظهر هذا الفن، ولكنَّ أقدم الازجال تعود لأبي بكر محمد بن عيسى بن عبدالملك بن قزمان القرطبي (ت. ٥٥٤هـ/١١٥٩م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٣)؛ ففي بداية أمره كان ينظم الشعر المُعرَب، ورأى أن ذلك لا يميِّزُه عن غيره، فعمد إلى طريقة لا ينافسُه فيها أحد، وابتدع الزجل المنظوم بكلام عامة أهل الأندلس؛ المجرَّد من قوانين الإعراب (ابن سعيد، (د.ت): ١٠٠/١)، وهذا لا يعني بالطبع أن كلَّ شعرٍ مجردٍ من الإعراب يسمى زجلاً، ونظراً لبراعة ابن قزمان في النظم بات يُعرف بإمام الزجالين في الأندلس(ابن سعيد، (د.ت): ١٠٠/١)، وقال عنه أهلها أنه في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء(المقري، ١٩٨٨: ٣٨٥/٣)()، مما يدلُّ على جودة أزجاله وعلوِّ منزلته في هذا الشأن، ويرى المؤرخون المحدَثون أن أزجال ابن قزمان تمثل حلقة مفصلية ضمن حلقات مسيرة تطور الزجل في بلاد الأندلس وفي غيرها؛ بعد أن وصل هذا الفن على يديه إلى درجة الكمال، صورةً وموضوعاً (عباس، ١٩٩٧: ٦٤)، واشتمل على مختلف المواضيع التي طرقها أهل العصر، بما فيها زجل الخمريات (Aseguinolaza; Gonzalez; Domigues، ١٩٨٤: ٣٦٧-٣٦٨)، وانتقلت أزجاله لروعتها إلى بلاد المشرق، وبخاصة إلى بغداد (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٣).

وممن اشتهروا بهذا الفن أيضاً، الشاعر الزجال أبو الحسن علي بن جحدر الأشبيلي (ت. ٦٣٨هـ/١٢٤١م) (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٣)، ومن أشهر موشحاته؛ تلك التي قالها في فتح جزيرة ميورقة؛ إحدى جزر الباليار، ومطلعها: من عاند التوحيد بالسيف يُمحَق. أنا بريءٌ ممن يعاند الحَق (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٦). وظهر أيضاً أبو عمرو بن الزاهر الأشبيلي (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٤)، الذي عُدَّ هو الآخر من أعلام الزجل الأندلسي، وممن عاصروا ابن قزمان في القرن السادس (ابن سعيد، (د.ت): ٢٨٣/١)، كما ظهر أبو الحسن المقري الداني وأبو بكر بن مرتين (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٤، وللاطلاع على نماذج من أشعار ابن مرتين؛ انظر: ابن سعيد، (د.ت): ٢٤٨/١)، وعاصرهم بشرق الأندلس الزجال مخلف الأسود (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٥)، وظهر خلال القرن الثامن محمد بن عبدالعظيم الوادي آشي (ت. ٧٤٠هـ/١٣٤٠م)[٦٥]، الذي عُدَّ إماماً في هذه الطريقة (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٦)، وكذلك أبو عبدالله اللوشي (ت. ٧٥٢هـ/١٣٥١م)[٦٦]، الذي نظَم قصيدة زجلية مدح فيها سلاطين غرناطة، وقال في مطلعها: طلَّ الصباح قم يا نديمي نشربو. ونضحكو من بعدما نطربو (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٣٧-٤٣٩).

وفي بلاد المغرب استحدث أهل الأمصار فنّاً آخر من الشعر، في أعاريض مزدوجة، نظَموا فيه بلُغتهم الحضرية زجلاً سمَّوه عروض البلد (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٤٠)، وعرف أيضاً بالملحون (الشاهري، ٢٠١٢: ١٢٦)، وكان أول من أحدثه فيهم رجل يعرف بابن عميرٍ من أهل الأندلس، كان قد نزل بفاس، فنظَم قطعة بطريقة الموشَّح؛ لم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب إلا قليلاً، ومنها: أبكاني بشاطي النهر نوح الحمام. على الغصن في البستان قريب الصباح . كف السحر يمحو مداد الظلام. وماء الندى يجري بثغر الأقاح، فاستحسن أهلُ فاس هذا النمط ونظموا على طريقته، دون مراعاةٍ لقواعد الإعراب (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٤٠-٤٤١)، ثم انتشر عروض البلد في بلاد المغرب، فجعلوه أصنافاً وأنواعاً، كالمزدوج والملحمة والغزل (الشاهري، ٢٠١٢: ١٢٦-١٢٧)، ونبغ في ذلك ابن شجاع من أهل تازا، وعلي بن المؤذن من أهل تلمسان، وأما أهل تونس فاستحدثوا فن الملعّبة أيضاً على لغتهم الحضرية، ونبغ فيه الكفيف الزرهوني (ت. ٧٥٠هـ/١٣٥٠م)، من أهل زرهون بضواحي مكناسة في بلاد المغرب الأقصى، ومن أحسن قصائده؛ القصيدة الزجلية التي نظمها في السلطان أبي الحسن المريني، والتي يعزّيه فيها ويؤنسه، إثر الهزيمة التي حلت به في القيروان عام ٧٤٩هـ/١٣٤٩م، وأشار ابن خلدون أن معظم هذه التآليف الزجلية كانت رديئة من الناحية اللغوية؛ فلم يعلق بمحفوظه منها شيئ (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٤١-٤٤٤).

ومن ناحية أخرى؛ تأثر التونسيون بالفنون الغنائية والشعرية والتواشيح الأندلسية، فألَّفوا فيها تواشيح عُرفت باسم "المألوف" (الطوخي، ١٩٩٤: ٧٣)، وعلى النسق نفسه عُرف هذا النمط في البلاد الجزائرية باسم "الغرناطي"، وأما النمط الثالث؛ وهو النمط الذي جمع بين تراث غرناطة وبلنسية[٦٧] وتداوله المغاربة؛ فعرف باسم "الآلة" (الشاهري، ٢٠١٢: ١٦٥)، وأخيراً ينوّه ابن خلدون أنه مهما تنوعت آداب وفنون اللغة العربية؛ فلَّما يشعر أهلُ الأندلس بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب، ولا يشعر أهلُ المغرب بالبلاغة التي في شعر أهل الأندلس، وهذا ينطبق على أهل المشرق، لأن اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم، وكلٌ منهم مدركٌ لبلاغة لغته، وذائقٌ لمحاسن الشعر في أهل جلدته دون غيرها (ابن خلدون، المقدمة، ٢٠٠٤: ٤٤٦)، مما يؤكد على دور البيئة الاجتماعية والثقافية في تكوين الهوية اللغوية وتحديد طبيعة أذواقها، وأخيراً؛ يتضح ابن خلدون قد اثبت جدارته في الإحاطة بمعظم جوانب علوم اللسان العربي وفنونه وأعلامه؛ وبخاصة في بلاد المغرب والأندلس، انسجاماً مع نظرياته الاجتماعية، التي ستبقى على الدوام خادمة لمسيرة التطور الحضاري والإنساني.

خاتمة

بعد كتابة هذه الدراسة وإتمامها يتبيّن ما يأتي:

جاءت معلومات ابن خلدون حول علوم اللغة العربية وأعلامها في بلاد المغرب والأندلس؛ على نحو غير متوازن من حيث الكَم،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وذلك لصالح بلاد الأندلس، والسبب في ذلك، ما ورد في كثير من المواضع التي أشارت إلى تفوق الأندلسيين على المغاربة في هذا المجال، لأسباب موضوعية كثيرة، أهمها الاستقرار السياسي النسبي الذي شهدته بلاد الأندلس، خلال عصر ابن خلدون، وقُربه من دوائرها الثقافية والعلمية، والعناية التي حظي بها في كنف السلطان الغرناطي الغني بالله محمد الخامس ووزيره لسان الدين ابن الخطيب، فضلاً عن كونه رحّالة، انتقل من المغرب إلى المشرق ، وتقلّد مناصب سياسية ودينية عدة، فسمح له كل ذلك الاطلاع بعمق على حقيقة الأوضاع اللغوية والأدبية، وملاحظة الاختلاف والتباين الحضاري لمختلف المجتمعات، فلمس بنفسه مدى تفوق الأندلسيين على المغاربة، بالإضافة إلى كثرة أعلام هذه العلوم من الأندلسيين، مما جعل مقدمته تجنح في معلوماتها لصالح بلاد الأندلس، على حساب بلاد المغرب.

ومن ناحية أخرى، أظهرت الدراسة إيمان ابن خلدون وإدراكه لحيويّة المركزية المكانيّة للعلم والتعليم، فإن صَلحت أحوال الحواضر الرئيسة صلُحت أحوال سائر البلاد، وهذا ما انطبق على مدينتي القيروان وقرطبة، ولكن الهجرات الهلالية التي اجتاحت القيروان وغيرها من مدن بلاد المغرب، وكذلك سقوط قرطبة بيد الإسبان، قد أثّرت سلباً على عمرانهما واتّصال سند التعليم فيهما، مما اثر سلباً على أحوال البلاد المغاربية والأندلسية برمّتها، ولذلك لم يكن من المستهجَن أن تكون غالبية الشخصيات العلمية والحضارية التي أتى عليها في مقدمته، تنتمي للفترات المبكرة من تاريخ المغرب والأندلس.

وربط ابن خلدون مدى التقدُّم العلمي بالحصول على الملَكة العلمية، وهذا لا يتأتّى إلّا بأمرين رئيسين، العمران، وما يؤول إليه من اكتفاء حصول الناس على أساسياتهم، وعندها سيكون بمقدورهم التفرّغ للعلم والتعليم، وأما الأمر الثاني فيتمثّل باتّصال سند العلم من جيلٍ إلى جيل، مما يؤدّي إلى إحداث نقلات تراكمية في مجال المعارف العلمية، ويتّضح مما أورده ابن خلدون في مقدمته أن تعليم العلوم، بما فيها علوم اللغة العربية، إنما هو من الصنائع، ولعل من أهم الأسباب التي استدعت الاهتمام بالعلوم اللغوية في بلاد المغرب والأندلس، الحرص على دوام الشريعة وحفظها، لأن مصادر الأحكام الشرعية هي الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب.

واعتبر ابن خلدون "الملَكة" اللغوية غاية ووسيلة في آن واحد، ذلك أنها تعني قدرة المتكلّم والكاتب على استخراج قواعد اللغة واستيعابها، بطريقة تمكنّه من التّعبير عن شتّى الأغراض بأسلوب سليم، ولا تتأتّى هذه الملكة إلا بالرحلة طلباً للعلم، وبالمشافهة والمحاورة اللسانية والفهم وكثرة الحفظ، فعلى قدر جودة المحفوظ وكثرته تكون جودة الملكة، ومن كانت محفوظاته من أشعار العرب القديمة كثيرة تكون ملكته أجوَد وأعلى مقاماً ورتبةً في البلاغة، وأما ملكَة الكتابة فتتحقق بالمِران وحفظ الأسجاع والتّرسيل.

وبيّنت الدراسة بأن آداب اللغة وفنونها في بلاد المغرب والأندلس قد اتخذت ألواناً وأنماطاً توافقت مع طبيعة التخصص الذي كان عليه الأديب في الأصل، فأشعار الفقهاء مثلاً تختلف في صِيَغها ومفرداتها عن غيرها، خاصة وأن الفقهاء وأهل العلوم كلهم تنقصهم البلاغة، بسبب ما سبق إلى محفوظهم من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أساليب البلاغة وفنونها.

وأظهرت الرؤية الخلدونية أن الموشح والزجل فنّان أندلسيان خالصان، ولدا وترعرعا في البيئة الأندلسية، ثم انتقلا بعد ذلك إلى المغرب والمشرق، ولعل من أهم أسباب ظهور الموشحات والأزجال في الاندلس، حالة التُّخمة التي أُصيب بها الشعر العربي هناك، فاستعاضوا عنه بالموشحات والأزجال، لبساطة ألفاظها، وتسرُّب الألفاظ الرومانسية العاميَّة إلى الكلام اليومي، فضلاً عن الطبيعة الأندلسية المترفة، ورغم تفوُّق الأندلسيين على المغاربة في فنون الشعر والموشحات والأزجال، فإن سندها لم ينقطع في كلا البلدين، وتأثّر المغاربة بالأندلسيين في هذا المجال، فنسجوا على منوالهم أنماطاً شعرية وزجلية بمسميات محلية ذات سمات خاصة، ويبدو أن الأوضاع السيئة التي سادت بلاد المغرب بعد الهجرات الهلالية، وتلك التي سادت بلاد الأندلس خلال عصر الطوائف وما بعده، قد شحذت قريحة الشعراء نحو مزيد من الإنتاج الشعري والأدبي.

ويتضح من خلال معلومات الدراسة عمق الدور الذي لعبه الأندلسيون في التأثير في معالم الحياة العلمية وطرق التعليم في بلاد المغرب الأدنى، فعلى الرغم من الضرر البالغ الذي أصاب العربية في نحوها وإعرابها وتعليمها في بلاد المغرب والأندلس بعد خراب القيروان وسقوط قرطبة، فإن تلك البلاد لم تعدم من يواصل رفع لواء العلم، فبقيت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، ولغة الدين والأدب والثقافة، بعد أن حلت تونس محلّ القيروان، وانتقل دور قرطبة إلى إشبيلية ثم غرناطة، فضلاً عن التأثير المغربي الأندلسي الحضاري واللغوي المتبادل، وظهر ذلك جلياً من خلال الازدهار العلمي في مجال الشعر والأدب واللغة في كثير من بلدان المغرب بفعل الهجرات الأندلسية، وبخاصة إلى تونس وفاس، بعد تغلُّب النصارى على بلاد الشرق الأندلسي، فضلاً عن قيام عددٍ من السلاطين التونسيين بحكم بعض الأقاليم الأندلسية في عهد الدولة الموحدية، وأخيراً، وقوع تونس على طريق الرحلة من الأندلس إلى المشرق، فكان كثيرٌ من أهل العلم وطلبته يمكثون فيها لطلب العلم قبل مواصلة رحلتهم إلى مصر والمشرق، ومما أسهم في استمرار تدفق سيل الإنتاج اللغوي المتبادل بين كلا القطرين التشجيع الذي حظي به علماء العربية من جانب خلفاء وأمراء كلا البلدين، الذين احتضنوهم ورفعوا من شأنهم، طوال العصور الإسلامية المتعاقبة، فضلاً عن الدّور الذي لعبته العلوم الدينية في الحفاظ على اللسان العربي، ثم انفتاح المغاربة والأندلسيين على الثقافة اللغوية المشرقية.

ويتبين من رؤية ابن خلدون للعلوم اللغوية في بلاد المغرب والأندلس، اختلاف لغة أهل المشرق عن لغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس عنهما خلال عصره، واختلاف لغة التخاطب بين أهل المدن والأمصار في بلاد المغرب والأندلس عن المُضرية والحِميرية التي كان عليها الجيل الفاتح، بسبب مخالطة أهل المغرب والأندلس للعجم، مما أدى إلى تعدد اللهجات العامية التي لا تعدو كونها حسب رأيه إلا تحولاً عن اللغة الفصيحة فيما يعده تخلياً عن الحركات الإعرابية، التي استُبدلت بالتقديم والتأخير في الكلام، ورغم ذلك،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وذلك لصالح بلاد الأندلس، والسبب في ذلك، ما ورد في كثير من المواضع التي أشارت إلى تفوق الأندلسيين على المغاربة في هذا المجال، لأسباب موضوعية كثيرة؛ أهمها الاستقرار السياسي النسبي الذي شهدته بلاد الأندلس، خلال عصر ابن خلدون، وقُربه من دوائرها الثقافية والعلمية، والعناية التي حظي بها في كنف السلطان الغرناطي الغني بالله محمد الخامس ووزيره لسان الدين ابن الخطيب؛ فضلاً عن كونه رحّالة؛ انتقل من المغرب إلى المشرق ، وتقلّد مناصب سياسية ودينية عدة، فسمح له كل ذلك الاطلاع بعمق على حقيقة الأوضاع اللغوية والأدبية، وملاحظة الاختلاف والتباين الحضاري لمختلف المجتمعات، فلمس بنفسه مدى تفوق الأندلسيين على المغاربة، بالإضافة إلى كثرة أعلام هذه العلوم من الأندلسيين؛ مما جعل مقدمته تجنح في معلوماتها لصالح بلاد الأندلس، على حساب بلاد المغرب.

ومن ناحية أخرى؛ أظهرت الدراسة إيمان ابن خلدون وإدراكه لحيويّة المركزية المكانيّة للعلم والتعليم؛ فإن صَلُحت أحوال الحواضر الرئيسة صلُحت أحوال سائر البلاد، وهذا ما انطبق على مدينتي القيروان وقرطبة، ولكن الهجرات الهلالية التي اجتاحت القيروان وغيرها من مدن بلاد المغرب، وكذلك سقوط قرطبة بيد الإسبان؛ قد أثّرت سلباً على عمرانهما واتّصال سند التعليم فيهما؛ مما اثر سلباً على أحوال البلاد المغاربية والأندلسية برمَّتها، ولذلك لم يكن من المستهجَن أن تكون غالبية الشخصيات العلمية والحضارية التي أتى عليها في مقدمته؛ تنتمي للفترات المبكرة من تاريخ المغرب والأندلس.

وربط ابن خلدون مدى التقدُّم العلمي بالحصول على الملَكة العلمية، وهذا لا يتأتّى إلّا بأمرين رئيسين؛ العمران، وما يؤول إليه من اكتفاء حصول الناس على أساسياتهم؛ وعندها سيكون بمقدورهم التفرّغ للعلم والتعليم، وأما الأمر الثاني فيتمثّل باتّصال سند العلم من جيلٍ إلى جيل؛ مما يؤدّي إلى إحداث نقلات تراكمية في مجال المعارف العلمية، ويتّضح مما أورده ابن خلدون في مقدمته أن تعليم العلوم، بما فيها علوم اللغة العربية؛ إنما هو من الصنائع، ولعل من أهم الأسباب التي استدعت الاهتمام بالعلوم اللغوية في بلاد المغرب والأندلس؛ الحرص على دوام الشريعة وحفظها، لأن مصادر الأحكام الشرعية هي الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب.

واعتبر ابن خلدون "الملَكة" اللغوية غاية ووسيلة في آن واحد؛ ذلك أنها تعني قدرة المتكلّم والكاتب على استخراج قواعد اللغة واستيعابها، بطريقة تمكنّه من التّعبير عن شتّى الأغراض بأسلوب سليم، ولا تتأتّى هذه الملكة إلا بالرحلة طلباً للعلم، وبالمشافهة والمحاورة اللسانية والفهم وكثرة الحفظ؛ فعلى قدر جودة المحفوظ وكثرته تكون جودة الملكة، ومن كانت محفوظاته من أشعار العرب القديمة كثيرة تكون ملكَته أجوَد وأعلى مقاماً ورتبةً في البلاغة، وأما ملكَة الكتابة فتتحقق بالمِران وحفظ الأسجاع والترسيل.

وبيَّنت الدراسة بأن آداب اللغة وفنونها في بلاد المغرب والأندلس قد اتخذت ألواناً وأنماطاً توافقت مع طبيعة التخصص الذي كان عليه الأديب في الأصل؛ فأشعار الفقهاء مثلاً تختلف في صِيَغها ومفرداتها عن غيرها، خاصة وأن الفقهاء وأهل العلوم كلهم تنقصهم البلاغة، بسبب ما سبق إلى محفوظهم من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أساليب البلاغة وفنونها.

وأظهرت الرؤية الخلدونية أن الموشح والزجل فنّان أندلسيان خالصان، ولدا وترعرعا في البيئة الأندلسية، ثم انتقلا بعد ذلك إلى المغرب والمشرق، ولعل من أهم أسباب ظهور الموشحات والأزجال في الاندلس؛ حالة التُّخمة التي أُصيب بها الشعر العربي هناك، فاستعاضوا عنه بالموشحات والأزجال؛ لبساطة ألفاظها، وتسرُّب الألفاظ الرومانسية العاميَّة إلى الكلام اليومي، فضلاً عن الطبيعة الأندلسية المترفة، ورغم تفوُّق الأندلسيين على المغاربة في فنون الشعر والموشحات والأزجال؛ فإن سندها لم ينقطع في كلا البلدين، وتأثُّر المغاربة بالأندلسيين في هذا المجال؛ فنسجوا على منوالهم أنماطاً شعرية وزجلية بمسميات محلية ذات سمات خاصة، ويبدو أن الأوضاع السيئة التي سادت بلاد المغرب بعد الهجرات الهلالية، وتلك التي سادت بلاد الأندلس خلال عصر الطوائف وما بعده؛ قد شحذت قريحة الشعراء نحو مزيد من الإنتاج الشعري والأدبي.

ويتضح من خلال معلومات الدراسة عمق الدور الذي لعبه الأندلسيون في التأثير في معالم الحياة العلمية وطرق التعليم في بلاد المغرب الأدنى؛ فعلى الرغم من الضرر البالغ الذي أصاب العربية في نحوها وإعرابها وتعليمها في بلاد المغرب والأندلس بعد خراب القيروان وسقوط قرطبة؛ فإن تلك البلاد لم تعدم من يواصل رفع لواء العلم، فبقيت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، ولغة الدين والأدب والثقافة، بعد أن حلت تونس محلّ القيروان، وانتقل دور قرطبة إلى إشبيلية ثم غرناطة، فضلاً عن التأثير المغربي الأندلسي الحضاري واللغوي المتبادل، وظهر ذلك جلياً من خلال الازدهار العلمي في مجال الشعر والأدب واللغة في كثير من بلدان المغرب بفعل الهجرات الأندلسية، وبخاصة إلى تونس وفاس، بعد تغلُّب النصارى على بلاد الشرق الأندلسي، فضلاً عن قيام عددٍ من السلاطين التونسيين بحكم بعض الأقاليم الأندلسية في عهد الدولة الموحدية، وأخيراً، وقوع تونس على طريق الرحلة من الأندلس إلى المشرق؛ فكان كثيرٌ من أهل العلم وطلبته يمكثون فيها لطلب العلم قبل مواصلة رحلتهم إلى مصر والمشرق، ومما أسهم في استمرار تدفق سيل الإنتاج اللغوي المتبادل بين كلا القطرين التشجيع الذي حظي به علماء العربية من جانب خلفاء وأمراء كلا البلدين، الذين احتضنوهم ورفعوا من شأنهم؛ طوال العصور الإسلامية المتعاقبة، فضلاً عن الدَور الذي لعبته العلوم الدينية في الحفاظ على اللسان العربي، ثم انفتاح المغاربة والأندلسيين على الثقافة اللغوية المشرقية.

ويتبين من رؤية ابن خلدون للعلوم اللغوية في بلاد المغرب والأندلس؛ اختلاف لغة أهل المشرق عن لغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس عنهما خلال عصره، واختلاف لغة التخاطب بين أهل المدن والأمصار في بلاد المغرب والأندلس عن المُضَرية والحِميرية التي كان عليها الجيل الفاتح، بسبب مخالطة أهل المغرب والأندلس للعجم، مما أدى إلى تعدد اللهجات العامية التي لا تعدو كونها حسب رأيه إلا تحولاً عن اللغة الفصيحة فيما يعده تخلياً عن الحركات الإعرابية، التي استُبدِلت بالتقديم والتأخير في الكلام، ورغم ذلك؛

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وذلك لصالح بلاد الأندلس، والسبب في ذلك، ما ورد في كثير من المواضع التي أشارت إلى تفوق الأندلسيين على المغاربة في هذا المجال، لأسباب موضوعية كثيرة، أهمها الاستقرار السياسي النسبي الذي شهدته بلاد الأندلس، خلال عصر ابن خلدون، وقُربه من دوائرها الثقافية والعلمية، والعناية التي حظي بها في كنف السلطان الغرناطي الغني بالله محمد الخامس ووزيره لسان الدين ابن الخطيب، فضلاً عن كونه رحّالة، انتقل من المغرب إلى المشرق ، وتقلّد مناصب سياسية ودينية عدة، فسمح له كل ذلك الاطلاع بعمق على حقيقة الأوضاع اللغوية والأدبية، وملاحظة الاختلاف والتباين الحضاري لمختلف المجتمعات، فلمس بنفسه مدى تفوق الأندلسيين على المغاربة، بالإضافة إلى كثرة أعلام هذه العلوم من الأندلسيين، مما جعل مقدمته تجنح في معلوماتها لصالح بلاد الأندلس، على حساب بلاد المغرب.

ومن ناحية أخرى، أظهرت الدراسة إيمان ابن خلدون وإدراكه لحيويّة المركزية المكانيّة للعلم والتعليم، فإن صَلُحت أحوال الحواضر الرئيسة صلُحت أحوال سائر البلاد، وهذا ما انطبق على مدينتي القيروان وقرطبة، ولكن الهجرات الهلالية التي اجتاحت القيروان وغيرها من مدن بلاد المغرب، وكذلك سقوط قرطبة بيد الإسبان، قد أثّرت سلباً على عمرانهما واتّصال سند التعليم فيهما، مما اثر سلباً على أحوال البلاد المغاربية والأندلسية برمّتها، ولذلك لم يكن من المستهجَن أن تكون غالبية الشخصيات العلمية والحضارية التي أتى عليها في مقدمته، تنتمي للفترات المبكرة من تاريخ المغرب والأندلس.

وربط ابن خلدون مدى التقدُّم العلمي بالحصول على المَلَكة العلمية، وهذا لا يتأتّى إلّا بأمرين رئيسين، العمران، وما يؤول إليه من اكتفاء حصول الناس على أساسياتهم، وعندها سيكون بمقدورهم التفرّغ للعلم والتعليم، وأما الأمر الثاني فيتمثّل باتّصال سند العلم من جيلٍ إلى جيل، مما يؤدّي إلى إحداث نقلات تراكمية في مجال المعارف العلمية، ويتّضح مما أورده ابن خلدون في مقدمته أن تعليم العلوم، بما فيها علوم اللغة العربية، إنما هو من الصنائع، ولعل من أهم الأسباب التي استدعت الاهتمام بالعلوم اللغوية في بلاد المغرب والأندلس، الحرص على دوام الشريعة وحفظها، لأن مصادر الأحكام الشرعية هي الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب.

واعتبر ابن خلدون "المَلَكة" اللغوية غاية ووسيلة في آن واحد، ذلك أنها تعني قدرة المتكلّم والكاتب على استخراج قواعد اللغة واستيعابها، بطريقة تمكنّه من التّعبير عن شتّى الأغراض بأسلوب سليم، ولا تتأتّى هذه الملكة إلا بالرحلة طلباً للعلم، وبالمشافهة والمحاورة اللسانية والفهم وكثرة الحفظ، فعلى قدر جودة المحفوظ وكثرته تكون جودة الملكة، ومن كانت محفوظاته من أشعار العرب القديمة كثيرة تكون ملكته أجوَد وأعلى مقاماً ورتبةً في البلاغة، وأما ملكَة الكتابة فتتحقق بالمِران وحفظ الأسجاع والترسيل.

وبيَّنت الدراسة بأن آداب اللغة وفنونها في بلاد المغرب والأندلس قد اتخذت ألواناً وأنماطاً توافقت مع طبيعة التخصص الذي كان عليه الأديب في الأصل، فأشعار الفقهاء مثلاً تختلف في صِيَغها ومفرداتها عن غيرها، خاصة وأن الفقهاء وأهل العلوم كلهم تنقصهم البلاغة، بسبب ما سبق إلى محفوظهم من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أساليب البلاغة وفنونها.

وأظهرت الرؤية الخلدونية أن الموشح والزجل فنّان أندلسيان خالصان، ولدا وترعرعا في البيئة الأندلسية، ثم انتقلا بعد ذلك إلى المغرب والمشرق، ولعل من أهم أسباب ظهور الموشحات والأزجال في الاندلس، حالة التُّخمة التي أُصيب بها الشعر العربي هناك، فاستعاضوا عنه بالموشحات والأزجال، لبساطة ألفاظها، وتسرُّب الألفاظ الرومانسية العاميَّة إلى الكلام اليومي، فضلاً عن الطبيعة الأندلسية المترفة، ورغم تفوُّق الأندلسيين على المغاربة في فنون الشعر والموشحات والأزجال، فإن سندها لم ينقطع في كلا البلدين، وتأثّر المغاربة بالأندلسيين في هذا المجال، فنسجوا على منوالهم أنماطاً شعرية وزجلية بمسميات محلية ذات سمات خاصة، ويبدو أن الأوضاع السيئة التي سادت بلاد المغرب بعد الهجرات الهلالية، وتلك التي سادت بلاد الأندلس خلال عصر الطوائف وما بعده، قد شحذت قريحة الشعراء نحو مزيد من الإنتاج الشعري والأدبي.

ويتضح من خلال معلومات الدراسة عمق الدور الذي لعبه الأندلسيون في التأثير في معالم الحياة العلمية وطرق التعليم في بلاد المغرب الأدنى، فعلى الرغم من الضرر البالغ الذي أصاب العربية في نحوها وإعرابها وتعليمها في بلاد المغرب والأندلس بعد خراب القيروان وسقوط قرطبة، فإن تلك البلاد لم تعدم من يواصل رفع لواء العلم، فبقيت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، ولغة الدين والأدب والثقافة، بعد أن حلت تونس محلّ القيروان، وانتقل دور قرطبة إلى إشبيلية ثم غرناطة، فضلاً عن التأثير المغربي الأندلسي الحضاري واللغوي المتبادل، وظهر ذلك جلياً من خلال الازدهار العلمي في مجال الشعر والأدب واللغة في كثير من بلدان المغرب بفعل الهجرات الأندلسية، وبخاصة إلى تونس وفاس، بعد تغلُّب النصارى على بلاد الشرق الأندلسي، فضلاً عن قيام عددٍ من السلاطين التونسيين بحكم بعض الأقاليم الأندلسية في عهد الدولة الموحدية، وأخيراً، وقوع تونس على طريق الرحلة من الأندلس إلى المشرق، فكان كثيرٌ من أهل العلم وطلبته يمكثون فيها لطلب العلم قبل مواصلة رحلتهم إلى مصر والمشرق، ومما أسهم في استمرار تدفق سيل الإنتاج اللغوي المتبادل بين كلا القطرين التشجيع الذي حظي به علماء العربية من جانب خلفاء وأمراء كلا البلدين، الذين احتضنوهم ورفعوا من شأنهم، طوال العصور الإسلامية المتعاقبة، فضلاً عن الدّور الذي لعبته العلوم الدينية في الحفاظ على اللسان العربي، ثم انفتاح المغاربة والأندلسيين على الثقافة اللغوية المشرقية.

ويتبين من رؤية ابن خلدون للعلوم اللغوية في بلاد المغرب والأندلس، اختلاف لغة أهل المشرق عن لغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس عنهما خلال عصره، واختلاف لغة التخاطب بين أهل المدن والأمصار في بلاد المغرب والأندلس عن المُضَرية والحِميرية التي كان عليها الجيل الفاتح، بسبب مخالطة أهل المغرب والأندلس للعجم، مما أدى إلى تعدد اللهجات العامية التي لا تعدو كونها حسب رأيه إلا تحولاً عن اللغة الفصيحة فيما يعده تخلياً عن الحركات الإعرابية، التي استُبْدِلت بالتقديم والتأخير في الكلام، ورغم ذلك،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وذلك لصالح بلاد الأندلس، والسبب في ذلك، ما ورد في كثير من المواضع التي أشارت إلى تفوق الأندلسيين على المغاربة في هذا المجال، لأسباب موضوعية كثيرة؛ أهمها الاستقرار السياسي النسبي الذي شهدته بلاد الأندلس، خلال عصر ابن خلدون، وقُربه من دوائرها الثقافية والعلمية، والعناية التي حظي بها في كنف السلطان الغرناطي الغني بالله محمد الخامس ووزيره لسان الدين ابن الخطيب؛ فضلاً عن كونه رحّالة؛ انتقل من المغرب إلى المشرق، وتقلّد مناصب سياسية ودينية عدة، فسمح له كل ذلك الاطلاع بعمق على حقيقة الأوضاع اللغوية والأدبية، وملاحظة الاختلاف والتباين الحضاري لمختلف المجتمعات، فلمس بنفسه مدى تفوق الأندلسيين على المغاربة، بالإضافة إلى كثرة أعلام هذه العلوم من الأندلسيين؛ مما جعل مقدمته تجنح في معلوماتها لصالح بلاد الأندلس، على حساب بلاد المغرب.

ومن ناحية أخرى؛ أظهرت الدراسة إيمان ابن خلدون وإدراكه لحيويّة المركزية المكانيّة للعلم والتعليم؛ فإن صَلُحت أحوال الحواضر الرئيسة صلُحت أحوال سائر البلاد، وهذا ما انطبق على مدينتي القيروان وقرطبة، ولكن الهجرات الهلالية التي اجتاحت القيروان وغيرها من مدن بلاد المغرب، وكذلك سقوط قرطبة بيد الإسبان؛ قد أثّرت سلباً على عمرانهما واتّصال سند التعليم فيهما؛ مما اثر سلباً على أحوال البلاد المغاربية والأندلسية برمَّتها، ولذلك لم يكن من المستهجَن أن تكون غالبية الشخصيات العلمية والحضارية التي أتى عليها في مقدمته؛ تنتمي للفترات المبكرة من تاريخ المغرب والأندلس.

وربط ابن خلدون مدى التقدُّم العلمي بالحصول على المَلَكة العلمية، وهذا لا يتأتّى إلّا بأمرين رئيسين؛ العمران، وما يؤول إليه من اكتفاء حصول الناس على أساسياتهم؛ وعندها سيكون بمقدورهم التفرّغ للعلم والتعليم، وأما الأمر الثاني فيتمثّل باتّصال سند العلم من جيلٍ إلى جيل؛ مما يؤدّي إلى إحداث نقلات تراكمية في مجال المعارف العلمية، ويتّضح مما أورده ابن خلدون في مقدمته أن تعليم العلوم، بما فيها علوم اللغة العربية؛ إنما هو من الصنائع، ولعل من أهم الأسباب التي استدعت الاهتمام بالعلوم اللغوية في بلاد المغرب والأندلس؛ الحرص على دوام الشريعة وحفظها، لأن مصادر الأحكام الشرعية هي الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب.

واعتبر ابن خلدون "المَلَكة" اللغوية غاية ووسيلة في آن واحد؛ ذلك أنها تعني قدرة المتكلّم والكاتب على استخراج قواعد اللغة واستيعابها، بطريقة تمكنّه من التّعبير عن شتّى الأغراض بأسلوب سليم، ولا تتأتّى هذه الملكة إلا بالرحلة طلباً للعلم، وبالمشافهة والمحاورة اللسانية والفهم وكثرة الحفظ؛ فعلى قدر جودة المحفوظ وكثرته تكون جودة الملكة، ومن كانت محفوظاته من أشعار العرب القديمة كثيرة تكون ملكَته أجوَد وأعلى مقاماً ورتبةً في البلاغة، وأما ملكَة الكتابة فتتحقق بالمِران وحفظ الأسجاع والترسيل.

وبيَّنت الدراسة بأن آداب اللغة وفنونها في بلاد المغرب والأندلس قد اتخذت ألواناً وأنماطاً توافقت مع طبيعة التخصص الذي كان عليه الأديب في الأصل؛ فأشعار الفقهاء مثلاً تختلف في صِيَغها ومفرداتها عن غيرها، خاصة وأن الفقهاء وأهل العلوم كلهم تنقصهم البلاغة، بسبب ما سبق إلى محفوظهم من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أساليب البلاغة وفنونها.

وأظهرت الرؤية الخلدونية أن الموشح والزجل فنَّان أندلسيان خالصان، ولدا وترعرعا في البيئة الأندلسية، ثم انتقلا بعد ذلك إلى المغرب والمشرق، ولعل من أهم أسباب ظهور الموشحات والأزجال في الاندلس؛ حالة التُّخمة التي أُصيب بها الشعر العربي هناك، فاستعاضوا عنه بالموشحات والأزجال؛ لبساطة ألفاظها، وتسرُّب الألفاظ الرومانسية العاميَّة إلى الكلام اليومي، فضلاً عن الطبيعة الأندلسية المترفة، ورغم تفوُّق الأندلسيين على المغاربة في فنون الشعر والموشحات والأزجال؛ فإن سندها لم ينقطع في كلا البلدين، وتأثّر المغاربة بالأندلسيين في هذا المجال؛ فنسجوا على منوالهم أنماطاً شعرية وزجلية بمسميات محلية ذات سمات خاصة، ويبدو أن الأوضاع السيئة التي سادت بلاد المغرب بعد الهجرات الهلالية، وتلك التي سادت بلاد الأندلس خلال عصر الطوائف وما بعده؛ قد شحذت قريحة الشعراء نحو مزيد من الإنتاج الشعري والأدبي.

ويتضح من خلال معلومات الدراسة عمق الدور الذي لعبه الأندلسيون في التأثير في معالم الحياة العلمية وطرق التعليم في بلاد المغرب الأدنى؛ فعلى الرغم من الضرر البالغ الذي أصاب العربية في نحوها وإعرابها وتعليمها في بلاد المغرب والأندلس بعد خراب القيروان وسقوط قرطبة؛ فإن تلك البلاد لم تعدم من يواصل رفع لواء العلم، فبقيت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، ولغة الدين والأدب والثقافة، بعد أن حلت تونس محلّ القيروان، وانتقل دور قرطبة إلى إشبيلية ثم غرناطة، فضلاً عن التأثير المغربي الأندلسي الحضاري واللغوي المتبادل، وظهر ذلك جلياً من خلال الازدهار العلمي في مجال الشعر والأدب واللغة في كثير من بلدان المغرب بفعل الهجرات الأندلسية، وبخاصة إلى تونس وفاس، بعد تغلُّب النصارى على بلاد الشرق الأندلسي، فضلاً عن قيام عددٍ من السلاطين التونسيين بحكم بعض الأقاليم الأندلسية في عهد الدولة الموحدية، وأخيراً، وقوع تونس على طريق الرحلة من الأندلس إلى المشرق؛ فكان كثيرٌ من أهل العلم وطلبته يمكثون فيها لطلب العلم قبل مواصلة رحلتهم إلى مصر والمشرق، ومما أسهم في استمرار تدفق سيل الإنتاج اللغوي المتبادل بين كلا القطرين التشجيع الذي حظي به علماء العربية من جانب خلفاء وأمراء كلا البلدين، الذين احتضنوهم ورفعوا من شأنهم؛ طوال العصور الإسلامية المتعاقبة، فضلاً عن الدَور الذي لعبته العلوم الدينية في الحفاظ على اللسان العربي، ثم انفتاح المغاربة والأندلسيين على الثقافة اللغوية المشرقية.

ويتبين من رؤية ابن خلدون للعلوم اللغوية في بلاد المغرب والأندلس؛ اختلاف لغة أهل المشرق عن لغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس عنهما خلال عصره، واختلاف لغة التخاطب بين أهل المدن والأمصار في بلاد المغرب والأندلس عن المُضَرية والحِميرية التي كان عليها الجيل الفاتح، بسبب مخالطة أهل المغرب والأندلس للعجم، مما أدى إلى تعدد اللهجات العامية التي لا تعدو كونها حسب رأيه إلا تحولاً عن اللغة الفصيحة فيما يعده تخلياً عن الحركات الإعرابية، التي استُبدِلت بالتقديم والتأخير في الكلام، ورغم ذلك؛

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وذلك لصالح بلاد الأندلس، والسبب في ذلك، ما ورد في كثير من المواضع التي أشارت إلى تفوق الأندلسيين على المغاربة في هذا المجال، لأسباب موضوعية كثيرة، أهمها الاستقرار السياسي النسبي الذي شهدته بلاد الأندلس، خلال عصر ابن خلدون، وقُربه من دوائرها الثقافية والعلمية، والعناية التي حظي بها في كنف السلطان الغرناطي الغني بالله محمد الخامس ووزيره لسان الدين ابن الخطيب، فضلاً عن كونه رحّالة، انتقل من المغرب إلى المشرق، وتقلّد مناصب سياسية ودينية عدة، فسمح له كل ذلك الاطلاع بعمق على حقيقة الأوضاع اللغوية والأدبية، وملاحظة الاختلاف والتباين الحضاري لمختلف المجتمعات، فلمس بنفسه مدى تفوق الأندلسيين على المغاربة، بالإضافة إلى كثرة أعلام هذه العلوم من الأندلسيين، مما جعل مقدمته تجنح في معلوماتها لصالح بلاد الأندلس، على حساب بلاد المغرب.

ومن ناحية أخرى، أظهرت الدراسة إيمان ابن خلدون وإدراكه لحيويّة المركزية المكانيّة للعلم والتعليم، فإن صَلُحت أحوال الحواضر الرئيسة صلُحت أحوال سائر البلاد، وهذا ما انطبق على مدينتي القيروان وقرطبة، ولكن الهجرات الهلالية التي اجتاحت القيروان وغيرها من مدن بلاد المغرب، وكذلك سقوط قرطبة بيد الإسبان، قد أثّرت سلباً على عمرانهما واتّصال سند التعليم فيهما، مما اثر سلباً على أحوال البلاد المغاربية والأندلسية برمّتها، ولذلك لم يكن من المستهجَن أن تكون غالبية الشخصيات العلمية والحضارية التي أتى عليها في مقدمته، تنتمي للفترات المبكرة من تاريخ المغرب والأندلس.

وربط ابن خلدون مدى التقدُّم العلمي بالحصول على المَلَكة العلمية، وهذا لا يتأتّى إلّا بأمرين رئيسين، العمران، وما يؤول إليه من اكتفاء حصول الناس على أساسياتهم، وعندها سيكون بمقدورهم التفرّغ للعلم والتعليم، وأما الأمر الثاني فيتمثّل باتّصال سند العلم من جيلٍ إلى جيل، مما يؤدّي إلى إحداث نقلات تراكمية في مجال المعارف العلمية، ويتّضح مما أورده ابن خلدون في مقدمته أن تعليم العلوم، بما فيها علوم اللغة العربية، إنما هو من الصنائع، ولعل من أهم الأسباب التي استدعت الاهتمام بالعلوم اللغوية في بلاد المغرب والأندلس، الحرص على دوام الشريعة وحفظها، لأن مصادر الأحكام الشرعية هي الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب.

واعتبر ابن خلدون "المَلَكة" اللغوية غاية ووسيلة في آن واحد، ذلك أنها تعني قدرة المتكلّم والكاتب على استخراج قواعد اللغة واستيعابها، بطريقة تمكنّه من التّعبير عن شتّى الأغراض بأسلوب سليم، ولا تتأتّى هذه الملكة إلا بالرحلة طلباً للعلم، وبالمشافهة والمحاورة اللسانية والفهم وكثرة الحفظ، فعلى قدر جودة المحفوظ وكثرته تكون جودة الملكة، ومن كانت محفوظاته من أشعار العرب القديمة كثيرة تكون ملكته أجوَد وأعلى مقاماً ورتبةً في البلاغة، وأما ملَكة الكتابة فتتحقق بالمِران وحفظ الأسجاع والترسيل.

وبيّنت الدراسة بأن آداب اللغة وفنونها في بلاد المغرب والأندلس قد اتخذت ألواناً وأنماطاً توافقت مع طبيعة التخصص الذي كان عليه الأديب في الأصل، فأشعار الفقهاء مثلاً تختلف في صِيَغها ومفرداتها عن غيرها، خاصة وأن الفقهاء وأهل العلوم كلهم تنقصهم البلاغة، بسبب ما سبق إلى محفوظهم من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أساليب البلاغة وفنونها.

وأظهرت الرؤية الخلدونية أن الموشح والزجل فنّان أندلسيان خالصان، ولدا وترعرعا في البيئة الأندلسية، ثم انتقلا بعد ذلك إلى المغرب والمشرق، ولعل من أهم أسباب ظهور الموشحات والأزجال في الاندلس، حالة التُّخمة التي أُصيب بها الشعر العربي هناك، فاستعاضوا عنه بالموشحات والأزجال، لبساطة ألفاظها، وتسرُّب الألفاظ الرومانسية العاميَّة إلى الكلام اليومي، فضلاً عن الطبيعة الأندلسية المترفة، ورغم تفوُّق الأندلسيين على المغاربة في فنون الشعر والموشحات والأزجال، فإن سندها لم ينقطع في كلا البلدين، وتأثُّر المغاربة بالأندلسيين في هذا المجال، فنسجوا على منوالهم أنماطاً شعرية وزجلية بمسميات محلية ذات سمات خاصة، ويبدو أن الأوضاع السيئة التي سادت بلاد المغرب بعد الهجرات الهلالية، وتلك التي سادت بلاد الأندلس خلال عصر الطوائف وما بعده، قد شحذت قريحة الشعراء نحو مزيد من الإنتاج الشعري والأدبي.

ويتضح من خلال معلومات الدراسة عمق الدور الذي لعبه الأندلسيون في التأثير في معالم الحياة العلمية وطرق التعليم في بلاد المغرب الأدنى، فعلى الرغم من الضرر البالغ الذي أصاب العربية في نحوها وإعرابها وتعليمها في بلاد المغرب والأندلس بعد خراب القيروان وسقوط قرطبة، فإن تلك البلاد لم تعدم من يواصل رفع لواء العلم، فبقيت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، ولغة الدين والأدب والثقافة، بعد أن حلت تونس محلّ القيروان، وانتقل دور قرطبة إلى إشبيلية ثم غرناطة، فضلاً عن التأثير المغربي الأندلسي الحضاري واللغوي المتبادل، وظهر ذلك جلياً من خلال الازدهار العلمي في مجال الشعر والأدب واللغة في كثير من بلدان المغرب بفعل الهجرات الأندلسية، وبخاصة إلى تونس وفاس، بعد تغلُّب النصارى على بلاد الشرق الأندلسي، فضلاً عن قيام عددٍ من السلاطين التونسيين بحكم بعض الأقاليم الأندلسية في عهد الدولة الموحدية، وأخيراً، وقوع تونس على طريق الرحلة من الأندلس إلى المشرق، فكان كثيرٌ من أهل العلم وطلبته يمكثون فيها لطلب العلم قبل مواصلة رحلتهم إلى مصر والمشرق، ومما أسهم في استمرار تدفق سيل الإنتاج اللغوي المتبادل بين كلا القطرين التشجيع الذي حظي به علماء العربية من جانب خلفاء وأمراء كلا البلدين، الذين احتضنوهم ورفعوا من شأنهم، طوال العصور الإسلامية المتعاقبة، فضلاً عن الدّور الذي لعبته العلوم الدينية في الحفاظ على اللسان العربي، ثم انفتاح المغاربة والأندلسيين على الثقافة اللغوية المشرقية.

ويتبين من رؤية ابن خلدون للعلوم اللغوية في بلاد المغرب والأندلس، اختلاف لغة أهل المشرق عن لغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس عنهما خلال عصره، واختلاف لغة التخاطب بين أهل المدن والأمصار في بلاد المغرب والأندلس عن المُضَرية والحِميرية التي كان عليها الجيل الفاتح، بسبب مخالطة أهل المغرب والأندلس للعجم، مما أدى إلى تعدد اللهجات العامية التي لا تعدو كونها حسب رأيه إلا تحولاً عن اللغة الفصيحة فيما يعده تخلياً عن الحركات الإعرابية، التي استُبْدِلت بالتقديم والتأخير في الكلام، ورغم ذلك،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وذلك لصالح بلاد الأندلس، والسبب في ذلك، ما ورد في كثير من المواضع التي أشارت إلى تفوق الأندلسيين على المغاربة في هذا المجال، لأسباب موضوعية كثيرة، أهمها الاستقرار السياسي النسبي الذي شهدته بلاد الأندلس، خلال عصر ابن خلدون، وقُربه من دوائرها الثقافية والعلمية، والعناية التي حظي بها في كنف السلطان الغرناطي الغني بالله محمد الخامس ووزيره لسان الدين ابن الخطيب؛ فضلاً عن كونه رحّالة، انتقل من المغرب إلى المشرق ، وتقلّد مناصب سياسية ودينية عدة، فسمح له كل ذلك الاطلاع بعمق على حقيقة الأوضاع اللغوية والأدبية، وملاحظة الاختلاف والتباين الحضاري لمختلف المجتمعات، فلمس بنفسه مدى تفوق الأندلسيين على المغاربة، بالإضافة إلى كثرة أعلام هذه العلوم من الأندلسيين؛ مما جعل مقدمته تجنح في معلوماتها لصالح بلاد الأندلس، على حساب بلاد المغرب.

ومن ناحية أخرى؛ أظهرت الدراسة إيمان ابن خلدون وإدراكه لحيويّة المركزية المكانيّة للعلم والتعليم؛ فإن صَلُحت أحوال الحواضر الرئيسة صلُحت أحوال سائر البلاد، وهذا ما انطبق على مدينتي القيروان وقرطبة، ولكن الهجرات الهلالية التي اجتاحت القيروان وغيرها من مدن بلاد المغرب، وكذلك سقوط قرطبة بيد الإسبان؛ قد أثّرت سلباً على عمرانهما واتّصال سند التعليم فيهما؛ مما اثر سلباً على أحوال البلاد المغاربية والأندلسية برمَّتها، ولذلك لم يكن من المستهجَن أن تكون غالبية الشخصيات العلمية والحضارية التي أتى عليها في مقدمته؛ تنتمي للفترات المبكرة من تاريخ المغرب والأندلس.

وربط ابن خلدون مدى التقدُم العلمي بالحصول على الملَكَة العلمية، وهذا لا يتأتّى إلّا بأمرين رئيسين؛ العمران، وما يؤول إليه من اكتفاء حصول الناس على أساسياتهم؛ وعندها سيكون بمقدورهم التفرّغ للعلم والتعليم، وأما الأمر الثاني فيتمثّل باتّصال سند العلم من جيلٍ إلى جيل؛ مما يؤدّي إلى إحداث نقلات تراكمية في مجال المعارف العلمية، ويتّضح مما أورده ابن خلدون في مقدمته أن تعليم العلوم، بما فيها علوم اللغة العربية؛ إنما هو من الصنائع، ولعل من أهم الأسباب التي استدعت الاهتمام بالعلوم اللغوية في بلاد المغرب والأندلس؛ الحرص على دوام الشريعة وحفظها، لأن مصادر الأحكام الشرعية هي الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب.

واعتبر ابن خلدون "الملَكة" اللغوية غاية ووسيلة في آن واحد؛ ذلك أنها تعني قدرة المتكلّم والكاتب على استخراج قواعد اللغة واستيعابها، بطريقة تمكنّه من التّعبير عن شتّى الأغراض بأسلوب سليم، ولا تتأتّى هذه الملكة إلا بالرحلة طلباً للعلم، وبالمشافهة والمحاورة اللسانية والفهم وكثرة الحفظ؛ فعلى قدر جودة المحفوظ وكثرته تكون جودة الملكة، ومن كانت محفوظاته من أشعار العرب القديمة كثيرة تكون ملكَته أجوَد وأعلى مقاماً ورتبةً في البلاغة، وأما ملكَة الكتابة فتتحقق بالمِران وحفظ الأسجاع والترسيل.

وبيَّنت الدراسة بأن آداب اللغة وفنونها في بلاد المغرب والأندلس قد اتخذت ألواناً وأنماطاً توافقت مع طبيعة التخصص الذي كان عليه الأديب في الأصل؛ فأشعار الفقهاء مثلاً تختلف في صِيَغها ومفرداتها عن غيرها، خاصة وأن الفقهاء وأهل العلوم كلهم تنقصهم البلاغة، بسبب ما سبق إلى محفوظهم من القوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أساليب البلاغة وفنونها.

وأظهرت الرؤية الخلدونية أن الموشح والزجل فنّان أندلسيان خالصان، ولدا وترعرعا في البيئة الأندلسية، ثم انتقلا بعد ذلك إلى المغرب والمشرق، ولعل من أهم أسباب ظهور الموشحات والأزجال في الاندلس؛ حالة التُخمة التي أُصيب بها الشعر العربي هناك، فاستعاضوا عنه بالموشحات والأزجال؛ لبساطة ألفاظها، وتسرُب الألفاظ الرومانسية العاميَّة إلى الكلام اليومي، فضلاً عن الطبيعة الأندلسية المترفة، ورغم تفوُق الأندلسيين على المغاربة في فنون الشعر والموشحات والأزجال؛ فإن سندها لم ينقطع في كلا البلدين، وتأثّر المغاربة بالأندلسيين في هذا المجال؛ فنسجوا على منوالهم أنماطاً شعرية وزجلية بمسميات محلية ذات سمات خاصة، ويبدو أن الأوضاع السيئة التي سادت بلاد المغرب بعد الهجرات الهلالية، وتلك التي سادت بلاد الأندلس خلال عصر الطوائف وما بعده؛ قد شحذت قريحة الشعراء نحو مزيد من الإنتاج الشعري والأدبي.

ويتضح من خلال معلومات الدراسة عمق الدور الذي لعبه الأندلسيون في التأثير في معالم الحياة العلمية وطرق التعليم في بلاد المغرب الأدنى؛ فعلى الرغم من الضرر البالغ الذي أصاب العربية في نحوها وإعرابها وتعليمها في بلاد المغرب والأندلس بعد خراب القيروان وسقوط قرطبة؛ فإن تلك البلاد لم تعدم من يواصل رفع لواء العلم، فبقيت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة، ولغة الدين والأدب والثقافة، بعد أن حلت تونس محلّ القيروان، وانتقل دور قرطبة إلى إشبيلية ثم غرناطة، فضلاً عن التأثير المغربي الأندلسي الحضاري واللغوي المتبادل، وظهر ذلك جلياً من خلال الازدهار العلمي في مجال الشعر والأدب واللغة في كثير من بلدان المغرب بفعل الهجرات الأندلسية، وبخاصة إلى تونس وفاس، بعد تغلُب النصارى على بلاد الشرق الأندلسي، فضلاً عن قيام عددٍ من السلاطين التونسيين بحكم بعض الأقاليم الأندلسية في عهد الدولة الموحدية، وأخيراً، وقوع تونس على طريق الرحلة من الأندلس إلى المشرق؛ فكان كثيرٌ من أهل العلم وطلبته يمكثون فيها لطلب العلم قبل مواصلة رحلتهم إلى مصر والمشرق، ومما أسهم في استمرار تدفق سيل الإنتاج اللغوي المتبادل بين كلا القطرين التشجيع الذي حظي به علماء العربية من جانب خلفاء وأمراء كلا البلدين، الذين احتضنوهم ورفعوا من شأنهم؛ طوال العصور الإسلامية المتعاقبة، فضلاً عن الدَور الذي لعبته العلوم الدينية في الحفاظ على اللسان العربي، ثم انفتاح المغاربة والأندلسيين على الثقافة اللغوية المشرقية.

ويتبين من رؤية ابن خلدون للعلوم اللغوية في بلاد المغرب والأندلس؛ اختلاف لغة أهل المشرق عن لغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس عنهما خلال عصره، واختلاف لغة التخاطب بين أهل المدن والأمصار في بلاد المغرب والأندلس عن المُضَرية والحِميرية التي كان عليها الجيل الفاتح، بسبب مخالطة أهل المغرب والأندلس للعجم، مما أدى إلى تعدد اللهجات العامية التي لا تعدو كونها حسب رأيه إلا تحولاً عن اللغة الفصيحة فيما يعده تخلياً عن الحركات الإعرابية، التي استُبدِلت بالتقديم والتأخير في الكلام، ورغم ذلك؛

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بقيت العربية الفصحى اللغة الرسمية في الأندلس، وهذا ينطبق على واقع اللغة العربية في بلاد المغرب في عهد ابن خلدون، ولكنها استطاعت المحافظة على تماسكها، ذلك أن البربرية كانت أضعف من أن تقاوم تأثير اللغة العربية الجارف.

وأفرغ ابن خلدون لقضية فساد اللغة أبواباً متعددة، واعتبر أخذ المفردات من لغة الأعاجم ليس فساداً للغة، ولم ير في ذلك غضاضة؛ ما دامت اللغة المحكية لا تزال تعبر عن الغرض المقصود من الكلام، وبأن فساد اللغة لم يكن يتمثل بفساد الإعراب وإنما باختلاف دلالات العبارات والكلمات ما بين لغة أهل العربية المضرية وبين اللغة التي عايشها في زمنه، ويمكن اعتبار موقف ابن خلدون في هذا المجال؛ تأصيلاً للبحث في اللسانيات الاجتماعية، ذلك أن الازدواجية اللغوية سنة من سنن اللغة، فرضتها العوامل والمؤثرات الاجتماعية والمناطقية، التي يجب أخذها بعين الاعتبار وعدم تجاهلها أو إقصائها.

ويتضح من خلال حديث ابن خلدون عن فنون الأدب أن لفظ "الذوق"؛ -والذي يعني حصول الملكة البلاغية لدى الأديب بالممارسة والمران لكلام العرب-لم يتأتَّ للبربر في بلاد المغرب، لقصور حظهم في هذه الملكة، بسبب مخالطتهم للعجم، مما جعل المشارقة يتفوقون عليهم، لأن علم البيان يعد من العلوم والصنائع الكمالية في العلوم اللسانية، التي توجد حيث وفور العمران؛ والمشرق أوفر عمراناً من المغرب، فلجأ المغاربة إلى علم البديع وجعلوه من جملة فنون الأدب الشعرية.

ويتبيَّن أيضاً مدى التسامح الذي أبداه مسلمو الأندلس، على وجه الخصوص، تجاه اليهود النصارى الذين عاشوا في كنف الدولة الإسلامية، فتُركت لهم الحرية في إظهار إبداعاتهم اللغوية والأدبية والشعرية، والتعبير عنها بلغتهم الخاصة، فظهر منهم الكثير من الأدباء والشعراء والوشّاحين.

وأخيراً، اشتملت مقدمة ابن خلدون على العديد من التوجيهات والإرشادات والتحذيرات، حول اسبل النهوض بعلوم اللغة العربية وآدابها وفنونها؛ علماً وتعليماً، ومن ذلك؛ أن اللغة العربية من العلوم التي تُعدُّ آلةً لغيرها، ولا ينبغي أن يُنظر فيها إلا من حيثُ هي آلة لذلك الغير، فلا يوسَّع فيها الكلام، ولا تُفرَّع فيها المسائل، لأن ذلك من شأنه أن يخرجها عن المقصود والهدف الذي وُجدت له، مما يجعل الاشتغال بها لهواً ومعيقاً عن تحصيل ملَكَة اللسان.

الهوامش

١- ابن العربي: أبو بكر، محمد بن عبدالله الإشبيلي، أحد أهم علماء الفقه والتفسير والحديث، تولى قضاء إشبيلية، وله العديد من المؤلفات، أهمها: "أحكام القرآن"، و"العواصم من القواصم"، وتوفي بفاس، انظر: (ابن خاقان، ١٩٨٣: ٢٩٧-٣٠٠)؛ (ابن بشكوال، ٢٠٠٨: ٢/٢٢٥-٢٢٧).

٢- أبو الأسود الدؤلي: ظالم بن عمرو بن شعبان الدؤلي، أصله من البصرة، تولى قضاءها خلال خلافة علي بن أبي طالب(٣٥-٤٠هـ/٦٥٦-٦٦٠م) كرّم الله وجهه، وشارك في صفين، ويعد أول من وضع علم النحو، ولمزيد من الاطلاع على سيرته، انظر: (ابن خلكان، (د.ت): ٢/٥٣٥-٥٣٩).

٣- الخليل بن أحمد: بن عمرو بن تميم الفراهيدي، إمام في النحو، وأول من استنبط علم العروض، وصنف "العين"، و"العروض" و"الشواهد"، انظر ترجمته: (القفطي، ١٩٨٦: ١/٣٧٦-٣٨٢).

٤- سيبويه: عمرو بن عثمان بن قنبر، من أشهر علماء النحو، أخذه عن الخليل بن أحمد وغيره، توفي في بلاد فارس، وسيبويه بالفارسية، رائحة التفاح، انظر: (ابن خلكان، (د.ت): ٣/٤٦٣-٤٦٥).

٥- ابن أصبغ: أبو محمد، القاسم بن أصبغ بن محمد يوسف، ويعرف بالبياني، ولد في قرطبة عام ٢٤٤هـ/٨٥٨م، رحل إلى المشرق فسمع من علماء مصر والعراق والحجاز، ثم عاد إلى الأندلس، ويُعَد من أئمة الحديث والنحو والشعر، انظر: (ابن الفرضي، ٢٠٠٨: ١/٤٦٧-٤٦٩).

٦- ابن فحلون: أبو عثمان، سعيد بن فحلون بن سعيد، ولد عام ٢٥٢هـ/٨٦٦م، أصله من البيرة بجنوبي بلاد الأندلس، من أنبغ الأدباء واللغويين في عصره، سمع من علماء الأندلس، وتفقه في القيروان، ورحل إلى بلاد المشرق وسمع من علمائها، انظر: (ابن الفرضي، ٢٠٠٨: ١/٢٣٨-٢٣٩).

٧- هشام المؤيد: أبو الوليد، ابن الحكم المستنصر، تولى الحكم عام ٣٦٦هـ/٩٧٦م وهو ابن عشرة أعوام، تغلب عليه المنصور محمد بن أبي عامر (ت. ٣٩٢هـ/١٠٠٢م) وأبناؤه، وتعرض لنكبات عديدة الى أن قتل عام٤٠٣هـ/١٠١٢م، انظر: (الضبي، ١٩٨٩: ١/٤٣).

٨- دانية: مدينة ساحلية تقع شرق بلاد الأندلس، سورها داخلٌ في البحر، ولها قصبة ودار لصناعة السفن، انظر: (الإدريسي، ٢٠٠٢: ٢/٥٥٧).

٩- أبو المطرف : أحمد بن عبدالله المخزومي، فقيه وأديب، ولد في جزيرة شقر عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م، وسكن بلنسية فتفقَّه بها، وكتب عن ولاتها، ووُلّي القضاء في الأندلس، وفي عدد من مدن بلاد المغرب، انظر: (الغبريني، ١٩٧٩: ٢٩٨-٣٠١)؛ انظر أيضاً: عبدالوهاب، ١٩٨٦: ١٩٠-١٩١).

١٠- المستنصر بالله: أبو عبدالله محمد بن أبي زكرياء، أحد ملوك الدولة الحفصية الأوائل، ويعد من مؤسسي هذه الدولة، وأول من أعلن الخلافة فيها وتسمى بأمير المؤمنين، انظر: (الطوخي، ١٩٩٤: ٦٥).

١١- العامري: أبو الجيش، الموفق بالله مجاهد بن عبدالله نشأ في قرطبة، وكان من أهل الشجاعة والعلم والأدب، قصد مدينة دانية وسائر جزائر الأندلس الشرقية عام ٤٠٦هـ/١٠١٥م، وغزا جزيرة سردانية البيزنطية، وظل في دانية حتى وفاته، انظر: (الحميدي، ٢٠٠٨: ٥٢٢-٥٢٤).

١٢- الموفق العامري: إقبال الدولة، علي بن مجاهد، تولى حكم شرقي الأندلس بعد وفاة أبيه عام ٤٣٦هـ/١٠٤٤م، اشتهر بحبه للعلم والعلماء، وفي عهده نشبت خلافات بينه وبين بني هود ملوك سرقسطة عام ٤٦٨هـ/١٠٧٥م، فغلبوه وامتلكوا دانية، انظر: (ابن خلدون، العبر، ٢٠٠٠: ٤/٢١١).

١٣- الجرجاني: أبو بكر، عبدالقاهر بن عبدالرحمن، من كبار النحويين، كان شافعياً أشعرياً، له من التصانيف: "المغني في شرح

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإيضاح"، "الجُمَل" و"العمدة" في التصريف، انظر: (ابن العماد، ١٩٨٦: ٥/٣٠٨-٣٠٩).

١٤- الجزولية: كتاب في النحو، ألفه عيسى بن عبدالعزيز الجزولي (ت. ٦٠٧هـ/١٢١٠م)، أحد علماء العربية، للمزيد، انظر: (ابن خلكان، (د.ت): ٣/٤٨٨-٤٩٠)؛ وممن تصدوا لشرح الجزولية؛ القاسم بن أحمد المرسي (ت٦٦١هـ/١٢٦٣م)، انظر: (البغدادي، ١٩٥٥: ١/٨٢٩).

١٥- وادي آش: بلدة تقع على بعد أربعين ميلاً جنوبي غرناطة، انظر: (الحميري، ١٩٨٤: ٤٥).

١٦- أبو الحجاج يوسف: بن اسماعيل بن فرج، تولى حكم مملكة غرناطة عام٧٣٤هـ/١٣٣٤م، وأنشأ أول مدرسة فيها، وفي عهده هُزم المغاربة والغرناطيون في موقعة طريف البحرية عام٧٤١هـ/١٣٤٠م، وتوفي عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، انظر: (ابن الخطيب، اللمحة، ١٣٤٧هـ: ٩٠، ٩٦-٩٧).

١٧- الغني بالله: محمد (الخامس) بن يوسف بن إسماعيل، تولى الحكم عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، وتعرض لانقلاب أدى إلى خلعه عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م حتى عام ٧٦٢هـ/١٣٦١م، وشهدت مملكة غرناطة في عهده نهضة عمرانية كبيرة، انظر: (ابن الخطيب، اللمحة، ١٣٤٧هـ: ١٠٠-١١٤).

١٨- القرطاجني: ابو الحسن حازم بن محمد بن حازم الأنصاري، تونسي الأصل، ويعد من علماء المذهب المالكي، ومن أهم أعلام النحو والشعر، ومن تصانيفه: قصيدته الميمية في النحو (المقصورة)، وكتاب "منهاج البلغاء" في البيان والبلاغة، انظر: (البغدادي، ١٩٥٥: ١/٢٦٠).

١٩- ابن هشام: جمال الدين، أبو محمد، عبدالله بن يوسف، من أهم علماء اللغة والفقه في مصر، ومن أهم مؤلفاته: "أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك"، انظر: (الونشريسي، (د.ت): ٥٠)؛ (ابن حجر العسقلاني، ١٩٩٣: ٢/٣٠٨-٣١٠)؛ (ابن تغري بردي، ١٩٨٤: ٧/١٣١-١٣٢).

٢٠- الجاحظ: أبو عثمان، عمرو بن عمر، أديب ولغوي مشهور، من أهل البصرة، ومن أهم كتبه: "كتاب الحيوان" و"البيان والتبيين" و "البخلاء"، انظر: (ابن النديم، (د.ت): ٢٠٨-٢١٢).

٢١- ابن قتيبة الدينوري: عبدالله بن مسلم: فارسي الأصل، ولد عام ٢١٣هـ/٨٢٨م، عاش في بغداد، وولي قضاء دينور في بلاد فارس، وكان عالماً في اللغة العربية والأخبار، وله الكثير من التصانيف، ومنها: "عيون الأخبار"، و"المعارف"، انظر: (الذهبي، ٢٠٠٠: ٢٠/٣٨١-٣٨٣).

٢٢- المبرد: أبو العباس، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، عالم في النحو، ومن أهم كتبه "الكامل"، وهو كتاب يجمع بين فنون الأدب والشعر والرسائل والنثر، انظر: (حاجي خليفة، (د.ت): ٢/١٣٨٢).

٢٣- عبدالرحمن الثالث: الناصر لدين الله بن محمد بن عبدالله: تولى حكم بلاد الأندلس عام ٣٠٠هـ/٩١٣م، وفي عام ٣١٦هـ/٩٢٨م أعلن الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين، وشهدت الأندلس في عهده ازدهاراً على جميع الصعد، انظر: (الحميدي، ٢٠٠٨: ٣٢-٣٣)؛ (الضبي، ١٩٨٩: ١/٣٩).

٢٤- الزهراء: مدينة أندلسية بناها الخليفة عبدالرحمن الثالث على بعد خمسة أميال غرب قرطبة، انظر: (الإدريسي، ٢٠٠٢: ٢/٥٧٩).

٢٥- للاطلاع على مقتطفات من أشعار ابن الرقيق في قصيدة يتشوَّق فيها إلى مصر، انظر: (عبدالوهاب، ١٩٨٦: ١٢٢-١٢٣)، وقصيدة أخرى مدح فيها الأمير باديس عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م، انظر: (المرجع نفسه: ١٢٣-١٢٤).

٢٦- انظر مقتطفات من أشعاره في الهجاء والمدح والوصف لدى: (ابن بسام، ١٩٩٧: ١/٥٣٠)؛ (نفسه، ٢/٦٤٢-٦٤٣)؛ ابن دحية، (د.ت): ٦٧-٧١)؛ (الكتبي، (د.ت): ٣/٣٥٩-٣٦١).

٢٧- ابن فرحون: عبدالله بن محمد، أندلسي الأصل، ولكنه رحل إلى المدينة المنورة، ومات بها، انظر: (ابن حجر العسقلاني، ١٩٩٣: ٢/٣٠٠)

٢٨- ابن باديس: المعز بن باديس بن منصور بن بلقين، تولى حكم الدولة الزيرية في بلاد المغرب بعد مقتل أبيه عام٤٠٦هـ/١٠١٥م، وخلال عهده غزا الهلاليون بلاد المغرب، وهزموه، فتقلص ملكه وانزوى بالمهدية حتى مات عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، انظر: (ابن خلدون، العبر، ٢٠٠٠: ٦/٢١٠-٢١١).

٢٩- أبو يحيى بن باديس: تولى الحكم بعد وفاة أبيه المعز في ظروف مضطربة، مما اضطره لخوض حروب مع القبائل الهلالية والبربرية، فاستغل الإسبان الأمر وسيطروا على المهدية عام٤٨٠هـ/١٠٨٥م، فاستخلصها من أيديهم بالمال، انظر: (ابن خلدون، العبر، ٢٠٠٠: ٦/٢١٢-٢١٣).

٣٠- أبو القاسم رضوان: عبدالله بن يوسف بن رضوان النجاري، ويكنى أيضاً أبا الفضل، من أهل مالقة، كان عالماً بالحديث والنحو واللغة والشعر، ارتحل إلى بلاد المغرب، وتولى العديد من المناصب في الدولة المرينية، وتوفي بمدينة أزمور، للمزيد، انظر: (ابن خلدون، التعريف، ١٩٧٩: ٤٢-٤٥).

٣١- الجزنائي: أبو العباس، أحمد بن محمد بن شعيب، من أهل فاس، كان عالماً بالحساب والأنساب والطب والنجوم، وبرع في علم اللسان والأدب والشعر، انظر: (المكناسي، ١٩٧٣: ١/١١٩-١٢١)، للاطلاع على مقتطفات من اشعاره، انظر: (ابن خلدون، التعريف، ١٩٧٩: ٤٩-٥٠).

٣٢- ابن النحوي: أبو الفضل يوسف بن محمد القيرواني، كان عالماً في الفقه وأصول الدين، أصله من توزر، وسكن القيروان ثم استقر في قلعة بني حماد، وله رحلة إلى الأندلس، انظر: (الذهبي، ٢٠٠٠: ٣٥/٣٦٠)؛ وللاطلاع على نماذج من أشعاره، انظر: (الأصفهاني، ١٩٨٦: ١٦/١١٠-١١١).

٣٣- لسان الدين بن الخطيب: أبو عبدالله محمد بن عبدالله ولد عام ٧١٣هـ/١٣١٣م في مدينة لوشة، اتصل ببلاط أبي الحجاج يوسف وتولى وزارته وكتابة سره، وقتل في فاس عام ٧٧٦هـ/١٣٧٤م، انظر: (ابن حجر العسقلاني، ١٩٩٣: ٣/٤٦٩-٤٧١).

٣٤- للاطلاع على مقتطفات من أشعار وموشحات ابن عبدربه، انظر: (صاعد، ١٩٨٥: ١٦٠-١٦١)؛ (ابن دحية، (د.ت): ١٥٢-١٥٤)؛ ولمعرفة أهم مميزات أسلوبه الشعري، انظر: (الشعر الأندلسي، الجيوسي، ١٩٩٨: ١/٤٩٠-٤٩٢).

٣٥- الأمير محمد: أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام، بويع وعمره ثلاثين عاماً، عرف عنه حسن الخلق والنبوغ في الأدب والبلاغة، شهدت الأندلس في عهده استقراراً نسبياً، واشتهر بالجهاد ضد الإسبان، انظر: (ابن الأبّار، الحلة، ١٩٨٥: ١/١١٩).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٣٦- الأمير المنذر: أبو الحكم المنذر بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط، وصف بالشجاعة ومضاء العزيمة، ومات عام٢٧٥هـ/٨٨٨م وهو معاصر للثائر عمر بن حفصون (ت. ٣٠٥هـ/٩١٧م) في قلعة ببشتر شمال مالقة، انظر: ابن الأبار، الحلة، ١٩٨٥: ١/١٢٠، ١٢٩، ١٣٧، ١٣٨).

٣٧- عبدالله بن محمد، بن عبدالرحمن الأوسط، ولد عام ٢٣٠هـ/٨٤٥م، يكنى أبو محمد، تولى الحكم عام ٢٧٥هـ/٨٨٨م، غصَّ عهدُه بالفتن، وصار في كل جهة متغلِّب، ومات عام ٣٠٠هـ/٩١٣م، انظر: (الحميدي، ٢٠٠٨: ٣٢).

٣٨- المنصور: محمد بن عبدالله بن أبي عامر، أصله من الجزيرة الخضراء، تعلم الأدب والحديث في قرطبة، وتولى الوصاية على هشام المؤيد، فدانت له الأندلس، وكان محباً للعلم والعلماء، ومن أهم مآثره أيضاً سيرته الجهادية، انظر: (المراكشي، ١٩٤٩: ٢٧-٣٩).

٣٩- ولمعرفة مميزات أسلوبه الشعري، انظر: (الشعر الأندلسي، الجيوسي، ١٩٩٨: ١/٤٩٧-٤٩٩)؛ ولمزيد من الاطلاع على سيرة ابن دراج، انظر: (الذهبي، ٢٠٠٠: ٢٩/٤٩-٥١).

٤٠- ابن أبي الحباب: أبو عمر، أحمد بن عبدالعزيز بن فرج النحوي، من أهل قرطبة، وهو أحد علماء اللغة والأدب والشعر وعلم اللسان، وعمل معلماً للمظفر أبي مروان عبدالملك بن المنصور بن أبي عامر، انظر: (ابن بشكوال، ٢٠٠٨: ١/٤٦).

٤١- أبو العلاء صاعد: بن الحسن الربعي البغدادي، أصله من الموصل، وصل إلى الأندلس عام٣٨٠هـ/٩٩٠م أيام هشام المؤيد وحجابة المنصور، كان شاعراً وعالماً باللغة والآداب والأخبار، وهاجر صاعد أيام الفتنة إلى صقلية، وتوفي فيها، انظر: (الضبي، ١٩٨٩: ٢/٤١٣-٤١٧).

٤٢- انظر: (ابن دحية، (د.ت): ١١١-١١٧)؛ (ابن سعيد، (د.ت): ٢/٣٦٧-٣٧١)؛ (الأصفهاني، ١٩٨٦: ٦/١٦)؛ (المقري، ١٩٨٨: ١/٦٨٢-٦٩١)؛ انظر أيضاً: شعر الطبيعة في الأندلس وظهور ابن خفاجة؛ (الجيوسي، ١٩٩٨: ١/٥٣٣-٥٦٦)؛ انظر: عباس، ١٩٩٧: ١٦٣-١٧٢).

٤٣- انظر مقال الجيوسي: الشعر الأندلسي؛ الجيوسي، ١٩٩٨: ١/٤٧٩-٤٨٠)؛ وللاطلاع على تركيب وبنية وأوزان الموشح والزجل، انظر: عيسى، فوزي، ٢٠٠٠: ٢٤١-٢٧٤)؛ (أبو زيد، ٢٠١٢: ١٠٢-١٠٧)؛ ومقال مونرو، (الجيوسي، ١٩٩٨: ١/٥٨٣).

٤٤- المعتصم بالله بن صمادح: أبو يحيى محمد بن معن التجيبي، أحد أشهر وأهم أمراء الدولة الصمادحية، استمر حكمه لواحد وأربعين عاماً، واهتم بالأدب والشعر والشعراء، انظر: (ابن سعيد، (د.ت): ٢/١٩٦-١٩٧)؛ (ابن دحية، (د.ت): ٣٥-٣٦)؛ (الأصفهاني، ١٩٨٦: ١٧/٨٣-٨٩).

٤٥- المرية: مدينة أندلسية ساحلية تقع جنوب شرق البلاد، بناها الخليفة عبدالرحمن الثالث عام ٣٤٤هـ/٩٥٥م، اشتهرت بمرساها الهام وصناعاتها النسيجية والمعدنية، انظر: (الحميري، ١٩٨٤: ٥٣٧-٥٣٨).

٤٦- للاطلاع على أشعار ابن القزاز وموشحاته، انظر: (ابن سعيد، (د.ت): ٢/١٣٤-١٣٧)؛ انظر أيضاً: (ابن بسام، ١٩٩٧: ١/٨٠٣-٨٠٥)؛ (الأصفهاني، ١٩٨٦: ١٧/١٨٢-١٨٣)؛ وللاطلاع على أشعاره بمدح ابن صمادح، انظر: (المقري، ١٩٨٨: ٣/٤١١-٤١٢).

٤٧- للاطلاع على مقتطفات من أشعار وموشحات ابن زهر، انظر: (الحموي، ١٩٩٣: ٢٥٥٢-2555)؛ (ابن دحية، (د.ت): ٢٠٣-٢٠٧)؛ (ابن الخطيب، جيش التوشيح، (د.ت): ١٩٦-٢١٢)؛ (عيسى، فوزي، ٢٠٠٠: ٢٣٩-٢٤٠)، وحول تصانيفه، انظر: (البغدادي، ١٩٥٥: ٢/١٠٤).

٤٨- المأمون بن ذي النون: يحيى بن اسماعيل الظافر، ولي الحكم في إشبيلية بعد أبيه عام ٤٢٩هـ/١٠٣٨م، بينه وبين النصارى مواقف مشهورة، وفي عام ٤٣٥هـ/١٠٤٤م استولى على بلنسية وانتزعها من بقايا العامريين، وضم إليه قرطبة، وتوفي مسموماً، انظر: (ابن خلدون، العبر، ٢٠٠٠: ٤/٢٠٧).

٤٩- انظر مقتطفات من توشيحاته؛ (ابن بسام، ١٩٩٧: ٢/٧٢٨-٧٥٣)؛ (الأصفهاني، ١٩٨٦: ١٧/٥١١-٥٢١)؛ (ابن سعيد، (د.ت): ٢/٤٥٢-٤٥٦)؛ (ابن الخطيب، جيش، (د.ت): ١٦-٣٢).

٥٠- مرسية: مدينة بالشرق الأندلسي، ولها نهر يسمى باسمها، وتبعد عن بلنسية خمس مراحل، انظر: (الإدريسي، ٢٠٠٢: ٢/٥٥٧-٥٥٩).

٥١- للاطلاع على نماذج من أشعار وتوشيحات ابن بقي، انظر: (ابن بسام، ١٩٩٧: ٢/٦١٥-٦٣٦)؛ (الأصفهاني، ١٩٨٦: ١٧/٢٣٦-٢٤٧)؛ (الكتبي، (د.ت): ١/٩٠-٩٤)؛ (ابن الخطيب، جيش، (د.ت): ٢-١٥)؛ (عباس، ١٩٩٧: ٩٢).

٥٢- للاطلاع على نماذج من توشيحاته وأشعاره، أنظر: (ابن دحية، (د.ت): ٧٦)؛ ابن الخطيب، جيش، (د.ت): ٢٣٤-٢٣٩).

٥٣- للاطلاع على أفكاره ومعتقداته؛ انظر: (هيرنانديس، الفكر الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية)؛ (الجيوسي، ١٩٩٨: ٢/١١٠١-١١٠٤).

٥٤- لابن رشد العديد من المصنفات؛ منها: "تهافت التهافت"، و"منهج الأدلة في الكشف عن عقائد الملة"، و"الكليات في الطب"، و"شرح رجز ابن سينا"، و"كتاب الحيوان"، انظر: (ابن أبي أصيبعة، ١٨٨٢: ٢/٧٧-٧٨)؛ (الذهبي، ٢٠٠٠: ٤٢/١٩٦- ١٩٨)؛ (النباهي، ١٩٨٣: ١١١).

٥٥- ابن تيفلويت (أو تافلويت): أبو بكر، أو أبو يحيى، بن إبراهيم المسوفي، من أمراء المرابطين، وصهر يوسف بن تاشفين، ولِّي سرقسطة، واستقل بحكمها حتى وفاته، انظر: (ابن الأبار، الحلة، ١٩٨٥: ٢/٢٧٦)؛ (ابن الخطيب، الإحاطة، ١٩٧٤: ١/٤٠٤-٤٠٨).

٥٦- ابن بسام، ١٩٩٧: ٣/٦٢١-٦٢٢؛ الأصفهاني، ١٩٨٦: ١٧/٣٣٣، وللاطلاع على أشعاره، بما فيها قصيدة الرثاء؛ انظر: (ابن الخطيب، الإحاطة، ١٩٧٤: ١/٤٠٨-٤٠٩).

٥٧- للاطلاع على أشعار أبي الفضل في المعتصم بن صمادح وغيرها؛ انظر: (ابن سعيد، (د.ت): ٢/٢٣٠-٢٣١)؛ (ابن دحية، (د.ت): ٧١)؛ (ابن الخطيب، جيش، (د.ت): ٩٧-١٠٨)؛ (المقري، ١٩٨٨: ٣/، ٣٩٣-٣٩٥)؛ انظر أيضاً: (عبدالوهاب، ١٩٨٦: ١٧٧-١٧٩).

٥٨- انظر مقتطفات من أشعاره: (ابن سعيد، (د.ت): ٢/٢١٦-٢١٨)؛ (المقري، ١٩٨٨: ٣/٤٦٥-٤٦٦)؛ (الشكعة، ١٩٨٣: ٤٣٧-٤٣٩).

٥٩- يعقوب المنصور: أبو يوسف، يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن الكومي، أمه أم ولد رومية الأصل، اسمها ساحر، ثالث حكام الموحدين، وانتصر على الإسبان في موقعة الأرك عام ٥٩١هـ/١١٩٥م، انظر: (المراكشي، ١٩٤٩: ٢٦١، ٢٨٢-٢٨٣).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٦٠- للاطلاع على شعر الصابوني في أبي بكر عبدالعزيز بن عبدالملك، انظر: (ابن الأبار، الحلة، ١٩٨٥: ٢/٣٠٨-٣١٠)؛ وللاطلاع على نماذج أخرى من أشعاره، انظر: (ابن الأبار، تحفة، ١٩٨٦: ٢٣٠-٢٣٣)؛ (المقري، ١٩٨٨: ٣/٥١٨-٥١٩).

٦١- أبو العلاء إدريس: المأمون إدريس بن يعقوب المنصور، أحد خلفاء الموحدين، عاصر قيام الدولة الحفصية، فقاومها ورفض تعاليم المهدي محمد بن تومرت(ت. ٥٢٤هـ/١١٣٠م)، وقتل من عارضه من شيوخ الحفصيين، انظر: (ابن الخطيب، الإحاطة، ١٩٧٤: ١/٤٠٩-٤١٨).

٦٢- الزاب: الإقليم الجنوبي لبلاد المغرب الأوسط، من أهم مدنه قفصة وتوزر، انظر: (الإدريسي، ٢٠٠٢: ١/٢٦٣، ٢٧٧).

٦٣- للاطلاع على أشعار ابن سهل ونماذج من موشحاته، انظر: (الكتبي، (د.ت): ١/٢٠-٣٠)؛ (ابن تغري بردي، ١٩٨٤: ١/٦٨-٧٤)؛ (المقري، ١٩٨٨: ٢/٣٠٧-٣٠٨)؛ (المصدر نفسه: ٣/٥٢٢-٥٢٣).

٦٤- للاطلاع على أشعار ابن قزمان وأزجاله، انظر: (ابن الأبار، تحفة، ١٩٨٦: ٥٦-٥٨)، ١٠٠-١٠١)؛ (ابن سعيد، (د.ت): ١/١٦٧-١٧٦)؛ (ابن الخطيب، الإحاطة، ١٩٧٤: ٢/٤٩٥-٤٩٨)؛ انظر أيضاً: (الشكعة، ١٩٨٣: ٤٥٦-٤٥٧).

٦٥- الوادي آشي: أبو عامر، محمد بن عبدالله بن عبدالعظيم بن أرقم، من بلدة وادي آش الأندلسية، من أهل الفقه والأدب واللغة، عرف عنه ميله للدعابة، واشتغل في بلدته بالتدريس والفتيا، انظر: (السيوطي، ١٩٧٩: ١/١٣٩).

٦٦- أبو عبدالله اللوشي: محمد بن محمد بن عبدالله من مدينة لوشة الاندلسية، ومن شعراء بلاط سلاطين بني الأحمر في غرناطة، انظر: (ابن الخطيب، الإحاطة، ١٩٧٤: ٢/٢٦٩)؛ وللاطلاع نماذج من أشعاره، انظر: (نفسه: ٢٧١-٢٧٢).

٦٧- بلنسية: عرفت بمدينة التراب، تقع شرقي بلاد الأندلس، على بعد ثلاثة أميال من البحر، انظر: (الإدريسي، ٢٠٠٢: ٢/٥٥٦).

المراجع

ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت. ٦٥٨هـ/١٢٦٠م):

- (١٩٨٥)، الحلة السيراء، جزءان، تحقيق: حسين مؤنس، ط٢، دار المعارف، القاهرة-مصر.

- (١٩٨٦)، تحفة القادم، علق عليه: إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان.

ابن الأحمر، أبو الوليد، إسماعيل بن يوسف الغرناطي (ت. ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، (١٩٧٦)، نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان.

الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد (ت. ٥٦٠هـ/١١٦٥م)، (٢٠٠٢)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، جزءان، (د.ط)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة-مصر.

ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم (ت. ٦٦٨هـ/١٢٧٠م)، (١٨٨٢)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، جزءان، نقل وتصحيح: امرؤ القيس بن الطحان، ط١، المطبعة الوهبية، القاهرة-مصر.

الأصفهاني، عماد الدين، محمد (ت. ٥٩٧هـ/١٢٠١م)، (١٩٨٦)، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء المغرب، ج١٦، تحقيق: محمد المرزوقي، محمد العروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحيى، ط٣، الدار التونسية للنشر، تونس.

أبو بحر، صفوان بن إدريس التجيبي (ت. ٥٩٨هـ/١٢٠٢م)، (١٩٨٠)، زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، أعده وعلق عليه: عبدالقادر محداد، (د.ط)، دار الرائد، بيروت-لبنان.

ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني (ت. ٥٤٢هـ/١١٤٧م)، (١٩٩٧)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٤أجزاء، تحقيق: د. إحسان عباس، (د.ط)، دار الثقافة، بيروت-لبنان.

البشري، سعيد، (١٩٨٦)، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، رسالة دكتوراة، قسم التاريخ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة-السعودية.

ابن بشكوال، خلف بن عبدالملك (ت. ٥٥٧٨/١٢٨٠م)، (٢٠٠٨)، كتاب الصلة، جزءان، تحقيق: شريف العدوي، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة-مصر.

البغدادي، إسماعيل باشا، (١٩٥٥)، هدية العارفين، جزءان، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان.

ابن تغري بردي، جمال الدين، أبو المحاسن (ت. ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، (١٩٨٤)، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ١٣جزء، تحقيق: د. محمد أمين، (د.ط)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة-مصر.

الجيوسي، سلمى، (١٩٩٨)، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، جزءان، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت-لبنان.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله (ت. ١٠٦٨هـ/١٦٥٧م)، (د.ت)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، جزءان، صححه وعلق عليه: محمد شرف الدين، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد(ت. ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، (١٩٩٣)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٤أجزاء، (د.ط)، دار الجيل، بيروت-لبنان.

حداد، فتيحة، (٢٠١١)، ابن خلدون وآراؤه اللغوية والتعليمية(دراسة تحليلية نقدية)، منشورات مخبر الممارسات اللغوية، جامعة مولود

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معمري، تيزي أوزو-الجزائر.

الحريري، محمد، (١٩٨٧)، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط٢، دار القلم، الكويت.

الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت. ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، (١٩٩٣)، معجم الأدباء، تحقيق: د. إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان.

الحميدي، أبو عبدالله محمد بن فتوح (ت. ٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، (٢٠٠٨)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: بشار معروف، محمد بشار، ط١، دار الغرب الإسلامي، تونس.

الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت. ٩٠٠هـ/١٤٩٥م)، (١٩٨٤)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، (د.ط)، مكتبة لبنان، بيروت-لبنان.

حواله، يوسف، (٢٠٠٠)، الحياة العلمية في إفريقية منذ تمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، جزءان، ط١، جامعة أم القرى، مكة المكرمة-السعودية.

ابن خاقان، الفتح بن محمد (ت. ٥٢٩هـ/١١٣٥م)، (١٩٨٣)، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق: محمد شوابكة، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان.

ابن الخطيب، لسان الدين، محمد بن عبدالله (ت. ٧٧٦هـ/١٣٧٤م):
- (د.ت)، جيش التوشيح، تحقيق: هلال ناجي، (د.ط)، مطبعة المنار، تونس.
- (١٣٤٧هـ)، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق: محب الدين الخطيب، (د.ط)، المطبعة السلفية، القاهرة-مصر.
- (١٩٧٤)، الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤أجزاء، تحقيق: محمد عبدالله عنان، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر.

ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م):
- (٢٠٠٤)، مقدمة ابن خلدون، جزءان، تحقيق: عبدالله الدرويش، ط١، دار يعرب، دمشق-سوريا.
- (٢٠٠٠)، تاريخ ابن خلدون المسمى العبر، ٧أجزاء، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، (د.ط)، دار الفكر، بيروت-لبنان.
- (١٩٧٩)، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، (د.ط)، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان.

ابن خلكان، أبو العباس، شمس الدين احمد (ت. ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، (د.ت)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٧أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر، بيروت-لبنان.

الخولي، عبدالبديع، (١٩٨٥)، الفكر التربوي في الأندلس، ط٢، دار الفكر العربي، (د.م).

ابن دحية، أبو الخطاب، عمر بن حسن (ت. ٦٣٣هـ/١٢٣٦م)، (د.ت)، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، حامد عبدالمجيد، أحمد بدوي، (د.ط)، دار العلم للجميع، بيروت-لبنان.

الذهبي، شمس الدين، محمد بن أحمد (ت. ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، (٢٠٠٠)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ٥٣جزء، تحقيق: د.عمر تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان.

ريبيرا، جوليان، (١٩٩٤)، التربية الإسلامية في الأندلس، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، ط٢، دار المعارف، القاهرة-مصر.

أبو زيد، سامي، (٢٠١٢)، الأدب الأندلسي، ط١، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمَان-الأردن.

ابن سعيد، علي بن موسى المغربي(ت. ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، (د.ت)، المغرب في حلى المغرب، جزءان، تحقيق: د.شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، القاهرة-مصر.

شمس الدين، عبد الأمير، (١٩٩١)، الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق، ط١، الشركة العالمية للكتاب، بيروت-لبنان.

السيوطي، جلال الدين، عبدالرحمن(ت. ٩١١هـ/١٥٠٥م)، (١٩٧٩)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جزءان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، (د.م).

الشاهري، مزاحم، (٢٠١٢)، الحضارة العربية الإسلامية في المغرب، ط١، مركز الكتاب الأكاديمي، عمَان-الأردن.

الشكعة، مصطفى، (١٩٨٣)، الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان.

شكور، مسعودة، (٢٠١٣)، إسهامات ابن خلدون وآراؤه في تعليمية اللغة، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، جامعة محمد الصديق، ع١٠، جيجل-الجزائر.

صاعد، أبو القاسم، بن أحمد الأندلسي (ت. ٤٦٢هـ/١٠٧٠م)، (١٩٨٥)، طبقات الأمم، تحقيق: حياة أبو علوان، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان.

الضبي، أبو جعفر أحمد بن يحي(ت. ٥٩٩هـ/١٢٠٣م)، (١٩٨٩)، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، جزءان، تحقيق، إبراهيم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأبياري، ط١، دار الكتاب المصري، القاهر؛ دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان.

الطوخي، أحمد، (١٩٩٤)، العلاقات الحفصية الأندلسية، (بحوث ندوة الأندلس، الدرس والتاريخ)، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية-مصر.

ظاظا، حسن، (١٩٧١)، اللسان والإنسان، مدخل إلى معرفة اللغة، دار المعارف، القاهرة-مصر.

عباس، إحسان، (١٩٩٧)، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق، عمّان-الأردن.

عبدالوهاب، حسن، (١٩٨٦)، مجمل تاريخ الأدب الأندلسي، (د. ط)، مكتبة المنار، تونس.

العبدري، محمد بن محمد البلنسي (ت. ٧٥٣هـ/١٣٥٢م)، (٢٠٠٧)، الرحلة المغربية، تقديم: د. أسعد بوفلاقة، ط١، بونة للبحوث والدراسات، بونة - الجزائر.

ابن العماد، شهاب الدين، عبدالحي بن أحمد (ت. ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، (١٩٨٦)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١٠ أجزاء، تحقيق: عبدالقادر ومحمود الأرناؤوط، ط١، دار ابن كثير، دمشق-سوريا.

عنان، محمد عبدالله (١٩٩٠)، دولة الإسلام في الأندلس، (عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس)، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر.

عناني، محمد، (١٩٩٤)، من أعلام فن التوشيح في الأندلس: لسان الدين بن الخطيب، دراسة وتوثيق، (بحوث ندوة الأندلس، الدرس والتاريخ)، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية-مصر.

عياض، القاضي أبو الفضل، بن موسى السبتي (ت. ٥٤٤هـ/١١٤٩م)، (٢٠٠٢)، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، تحقيق: د. قاسم سعد، ط١، دار البحوث للدراسات الإسلامية، دبي- الإمارات.

عيسى، محمد، (١٩٨٢)، تاريخ التعليم في الأندلس، ط١، دار الفكر العربي، (د.م).

عيسى، فوزي، (٢٠٠٠)، دراسات في أدب المغرب والأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية-مصر.

الغبريني، أبو العباس، أحمد بن عبدالله (ت. ٧١٤هـ/١٣١٤م)، (١٩٧٩)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: عادل نويهض، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت-لبنان.

ابن فرحون، إبراهيم بن علي(ت. ٧٩٩هـ/١٣٩٧م)، (د.ت)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، جزءان، تحقيق: د. محمد أبو النور، (د.ط)، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة-مصر.

ابن الفرضي، أبو الوليد، عبدالله بن محمد (ت. ٤٠٣هـ/١٠١٢م)، (٢٠٠٨)، تاريخ علماء الأندلس، جزءان، تحقيق: د. بشار معروف، ط١، دار الغرب الإسلامي، تونس.

القفطي، أبو الحسن، علي بن يوسف (ت. ٦٢٤هـ/١٢٢٧م)، (١٩٨٦)، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ٤أجزاء، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت-لبنان.

الكتبي، محمد بن شاكر (ت. ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، (د.ت)، فوات الوفيات والذيل عليها، ٥ أجزاء، تحقيق: د. إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر، بيروت-لبنان.

المراكشي، عبدالواحد بن علي التميمي (ت. ٦٤٧هـ/١٢٤٩م)، (١٩٤٩)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصححه: محمد العريان ومحمد العلمي، ط١، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة-مصر.

المقري، شهاب الدين، أحمد بن محمد (ت. ١٠٤٠هـ/١٦٣١م)، (١٩٨٨)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٨ أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر، بيروت-لبنان.

المكناسي، أحمد بن القاضي (ت. ١٠٢٥هـ/١٦١٦م)، (١٩٧٣)، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، (د.ط)، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط-المغرب.

الموصلي، سامي، (١٩٧٠)، دراسات أندلسية، ط١، (د.ن)، بغداد-العراق.

النباهي، أبو الحسن، بن عبدالله بن الحسن(ت. ٧٩٢هـ/١٣٩٠م)، (١٩٨٣)، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق: لجنة إحياء التراث، ط٥، دار الآفاق الجديدة، بيروت-لبنان.

ابن النديم، أبو الفرج، محمد بن إسحق (ت. ٤٣٨هـ/١٠٤٧م)، (د.ت)، الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، (د.ط)، (د.م).

الونشريسي، أحمد بن يحيى(ت. ٨١٤هـ/١٤١١م)، (د.ت)، وفيات الونشريسي، تحقيق: محمد القاضي، (د.ط)، شركة نوابغ الفكر، (د.م).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المراجع الأجنبية

Aseguinolaze F.; Gonzalez, A.; Domingues, C. (1984), A Comparative History of Literatures in the Iberian Peninsula, V.1, J. Benjamins Publishing Com., Amsterdam-Netherlands.

Chomsky, Naom (1969), Aspects de la Theore Syntaxique, Traduction de Jean Claude Minler, Saint-Etienne - France.

Decter, Jonathan (2005), Literatures of Medieval Sepharads, 1st. ed., New-York University Press, New-York-U.S.A.

Gellner, Ernest (1983), Nations and Nationalism, Basil Blackwell Ltd., Oxford - United Kingdom.

Gilbert, Longhi (1995), Dictionnaire du L'Education Pour Mieux Connaitre les Systeme Educatif, ed. Vuibert, Paris-France.

Jakobson, Roman (1991), Essai de Linguistique Generale, Vol.2, Ed. du Minuit, Paris - France.

Jeanroy, A. (1972), Les Chansons de Guillaume IX, 2nd. ed., Champion, Paris- France.

Menocal, M.; Scheindlin, R.; Sells, M. (2000), The Literature of Al-Andalus, 1st. ed., Cambridge University Press, Cambridge-United Kingdom.

Touma, H. (1997), The Music of the Arabs, L. Schwarts, Amadeus Press, Portland, Oregon - U.S.A.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com